صبر فوق الطوفان

رواية



صابر جمعة

٢٠٠٤

إهداء

إلي كل من له
القدرة علي تضفير
الصبر إلي جدائل
وحفره إلي جداول

(١)

لــم تكــن للمســـافات عنده حدود ، بل تركها تمتد كما يحلو لها ، وترك لها العنان لكي يلهث وراءها .

فالشوق عنده مسافة ، والحنين تجسد إلى زمن ، واللقاء هو الحصاد ، العالم بيــن أصابعه ، ودولته هو داخلها ، وذكرياته تعمل داخله ، بروح الفريق .. نـــزل من القطار وعبر كبري شنهور واخترق الحارة الضيقة الطويلة التي لم يهــنأ بــترابها طويلا ، واقترب من اللقاء .. كما هي صوره بجميع مراحلها تــنظر إلــيه ، وينظر إليها، رآها تحييه على الصبر ، جلس يتأملها ويتذكر مدخل الطريق إلى مسافة ليس لها زمن يعرفه ..

جاء إلى مصر منذ طفولته اليانعة . نازحاً من الأقصر الفرعونية . خوفا من والــده ، وتملصــا مــن بطــش هراوته . فقد ضرب زميلا له في المدرسة الابتدائــية. ومــن يومها ، هرع إلى القطار الذي أقله إلى مصر . سأل عن عــنوان عمــه : قسم الخليفة – سوق السلاح – حارة حلوات . هذه الحارة تعتــبر مرصـــداً الآن لجميع القباب القابعة في صمت فوق صرح قلعة محمد علــي . والذاهب إلى حارة حلوات ، يعتصره الشوق للبقاء في هذه المنطقة فهي عرين مفتوح تبرز منه رأس الحضارة الإسلامية في وقار ، وينتشر من تحــت قبابه الخالدة شذي عطر الماضي ، يعب منه كل قادم إلى هذه المنطقة في شغف .

أرســل عمه تلغرافاً إلى أخيه يخبره بأن ابنه شوقي طرفه ، فلا يقلق . عاش شــوقي فــي مــنزل عمه عسكري البوليس الذي رعاه بعنايته . فكان مرتع طفولــته الــذي استقى معه بذور الإيمان . اودعه عمه في (ورشة ميكانيكا الســيارات) تقــع فــي نفــس الحــارة . وذلك عندما ذابت إقناعاته له في اســتمراره لاســتكمال تعليمه . بات يحلم بجلوسه امام عجلة القيادة . ومع مرور الايام والشهور والسنين تعلم كيف يعيد تركيب اجزاء السيارة من جديد ، أحس أنه يقبض من توه على زمام مستقبله ، وقف امام المرآة اكتشف انه رجــل مــثل الــرجال شكر خالقه على قامته المتوسطة وبشرته البنية وشعر رأ ســه المفلفل . زحفت اصابعه تجاه خديه وشاربه . ابتسم ابتسامة هادئة حــاور نفســه قائلاً : ــ (انت دلوقت وصلت ١٩ سنة) .. في بيت عمنا الكــريم . لم ينس يوم أن ذهب مع عمه إلى المسجد القريب قبل صلاة الفجر بســاعة ، وعــندما هم بصعود اولى درجاته قال له عمه : " تعال يا شوقي نــروح جــامع سيدنا الحسين ، عشان أبعد وكل خطوة بحسنة " وبغتة حطت علــى ذاكرته نظرات وإشارات وابتسامات عمرها عام واحد . كان لا يعيرها اهــتماما لكــنه الان يحملــق في المرآة وكأنه يتأكد من انه رجل له عالمه الخــاص به وحده . يرتكز على أصابع قدميه العشرة ، فتمتد قامته إلى اعلى . يكتشــف حينئذ انه تساوى في طوله مع صاحب الورشة . شعر بمسئوليته فــي الحــياة . انبســطت أســاريره وتبوأت صدره تنهيدة ارتياح . وكيف لا يــرتاح؟ ورصــيده الآن مــع عمه ثلاثمائة جنيه . ركضت فوق بساط قلبه (حمدية) تلك الفتاة المرحة رغم بدانتها فقد كانت رائحة أنوثتها تتعبق في

أنفــه ، فيحيلها إلى خزائن صد ره لتكون سلواه في وحدته . وسط الفراش . أو بجــوار عجلة القيادة لا يعشق في أيام الأسبوع سوى يوم الخميس . كان حــازم شــقيقها الوحيد يصطحبه بعد عمل يوم شاق إلى منزله ليتناولا طعام العشــاء ثم يحتسيا بعدها الناسكافيه . لم يكن في المنزل غير حمدية وحازم ووالدهمــا المسن ، أما والدتهما فقد انقضى نحبها منذ فترة طويلة . ولذلك كــان حــازم يــود تزويج حمدية من شوقي ، وإن كان لا يعلم بلغة القلوب والعــيون فكانــت حمدية عندما توارب باب ا لحجرة ، تقفز ابتسامتها قبلها ترفــرف ، وكأ نها حمامة العشق والسلام تبحث عن أعواد لبناء وكر الحياة القادمة . وإن كان شوقي وحيداً في الغرفة يهب واقفاً ويمد أصابعه ويطبقها فوق الشموع القابضة على الصينية ، ويغترف من عيون الحياة شعاع الأمل ويلتهم اللؤلؤ المزهو في صلف فوق مقاعده في قصر فيها .. وإذا كان حازم يجلــس معه فإنه يجاهد ويكابد حتى لا يتصبب ولا يتفصد من جبينه العرق وينكشف الأمر ، تأجحت نار الشوق داخله ، خلع ملابسه الرثة وارتدى بذلته الــزرقاء ولم ينس رابطة العنق المموجة برقصات البحر . أكرم شعر رأسه صفصفة

حــتى ا ستقر المفرق ناحية الشمال ، تعطر بزجاجة سيكريه . قال لنفسه : " الــيوم هــو ا لفيصل بين حياة سابقة ، وحياة قادمة " . لم يشعر بمثول عمه أمامه إلا عندما استدار ليتناول الشراب الأزرق الراقد فوق الكرسي المجاور ، دُهش العم إنه لم يعتد أن يرى شوقي بالصورة التي يراه عليها الآن .. قال لنفســه : " لازم فيه حاجة أ نا مش عارفها .. فيه ايه يا شوقي ؟ انا شايفك

مش على عادتك !.. – أهلا يا عمي اتفضل أنا عايز أتكلم معاك في موضوع مهـــم .. – خـــير يا ولدي ، إيه هو الموضوع ؟ .. زحفت حمرة الخجل على محـــياه وعج فيه بكلمات كثيرة لا يد ري بأي واحدة يبدأ ، ثم تشجع قائلاً : " أظـــن يا عمي أنك تحب لي الخير والسعادة ؟! ..– طبعاً يا ا بني باحبلك كل خـــير وا لبيت بيتك زي اولادي تمام .... وجد شوقي من الأفضل أن يخترق لب الموضوع مباشرة حتى تنقشع غمامات السقامة من جو الحجرة . قال : " انا عزمت على الزواج .. – مين ؟ .. – أخت حازم صاحبي في الورشة.. – تقصـــد حمديـــة ؟ .. يهمني رأيك فيها يا عمي .. – هيه بنت كويسة ، وبنت حـــلال ، بـــس انت مستعجل ليه ؟ مش تستنى اما تخلص العسكرية ... قال شـــوقي مـــن خـــلال ابـــتهاجة عشوائية : " خير البر عاجله ، وعلى العموم العســـكرية فاضل عليها سنة . أستأذنك يا عمي تيجي معايا نطلب أيدها من أبوهـــا وأخوها .. – مادام أنت مصسم ، يالا بينا ... ثم قال فجأة وكأنه تذكر شـــيئاً : " وفلوسك يا شوقي يا ابني اللي معايا ، أجيبها دلوقت ؟ .. – لا يا عمـــي ، إذا كنـــت محتاجها خلليها ، وأنا معايا مائة جنيه للشبكة .. – لا يا ابنـــي ، انـــا لو محتاج الفلوس دية أنا ها قولك . مستورة وا لحمد لله . أهم حاجة أنا عايز أشوفك مبسوط . وليك بيت ...

وفـــي جلســـة عائلـــية تم تحديد يوم الزفاف . وجاء موعد التجنيد ، وأنهى أوراقه . وارتدى بدلته الميري . كان يقطن في نفس الحارة لواء في القوات المســـلحة مـــع أسرته . بينه وبين عم شوقي صلة وثيقة .استطاع اللواء ان يضـــم شوقي إلى وحدته العسكرية . وقد ساهم في ذلك سيارته الخاصة التي

تــرددت كثـــيراً على الورشة لاصلاحها . واصبح شوقي قائد السيارة الجيب المـــيري التي تقل اللواء إلى مأمورياته العسكرية . وكلما حصل شوقي على أجـــازة ، قضـــاها في العمل بالورشة ، لأنه أصبح الآن مسئولا عن أسرة ، يـــزداد رصـــيده من الأفواه والاستهلاك ، عاما بعد عام . وقبل إ نهاء خدمته العسكرية ، عرض عليه اللواء ان يجدد خدمته في الحياة العسكرية ، فوافق شوقي ، وأنهى له اللواء الأوراق اللازمة لذلك .

وكـــان شوقي يقود سيارة اللواء الخاصة اذا لزم الامر . سر شوقي بوظيفته الجديدة . خلت الأيام والشهور والسنين هادئة ، لا تشوبها شائبة . ولا يعكر صفوها معكر . اصبح حلمه حقيقة . عاش في نعيم حياة وردية . كان يذهب إلى ا لورشة مضطراً . لأنه لا يود ان يفارق بستانه . لكن لقمة العيش كانت تــرغمه على الصبر حتى الرجوع فينغمر في عيون حياة خالدة ، يذوب معها شـــقاء العمـــل . أصـــبحت حمدية بمثابة أهله وعشيرته . منَّ عليها بكل ما تحـــتاجه . فعاشـــا طائريـــن سعيدين داخل عشهما الذهبي ، النقاء والطهارة والطاعـــة والمثالـــية والحـــب المتبادل والوفاء والإنسانية . كلها بذور نمت وترعرعـــت في باطن الارض ا لخضراء ا لتي صنعاها سوياً . مضى خمسة عشـــر عامـــاً أنجبا خلالها سبعة أولاد . ثلاثة بنين . أربع بنات . لم تتجاوز الكـــبرى أحد عشر عاماً .. كانت توجد بعض الخلافات البسيطة التي هي أ د نـــى من أن تذكر . والتي كانت تتلاشى قبل مجئ الليل . وتنتهي بان يتغاضى كـــل منهما عما ركب رأسه من تصلب ، عن طريق ابتسامة كفيلة بان تمحو ما حدث من هتارات سخيفة . كان يجب الا تكون . وفي فضاء الحجرة يذوب الوجدان المشتعل . وكأن شيئا لم يكن .

(٢)

كانــت هــناك أسرة مكونة من ثلاثة أفراد يعيشون في الشقة الأرضية أسفل شــقة شوقي . أرملة مات زوجها بعد عامين من الزواج وابنتها التي رملت ايضا في الشهر السادس من عرسها .

ومعهمــا يعــيش شقيق الأم . ونظرا لما يتسم به شوقي من أخلاق عالية ، وشــهامة بــارزة فــي الحارة . طمعت المرأة في تزويج ابنتها الأرملة له . يركــب رأســها المثل القائل (ظل راجل ولا ظل حيطة) فأخذت تفكر وتدبر حــتى انتهى بها الأمر للتنفيذ ، نظرت من خصاص النافذة ومن خلال شعاع الشمس البكر. رمقت ابن شوقي الصغير ، يقفز ويلهو وسط الشارع . فتحت زجاج النافذة ونادت : ـــ تعال يا راضي ، خذ هات حلاوة من برعي البقال ، عشان أديلك حتة ...

رفــض راضــي المســاومة ... تركت المرأة النافذة ، وعرجت ناحية الباب الرئيســي تنــتظر اقترابه. حتى دنا منها راكضاً. ود ون مبالاة ، سجنته بين أصــابعها الغلــيظة . وهوت على وجهه الصغير صفعاً ، ارتفع صوت الطفل إلــى أذنــي أمه وهي واقفة في المطبخ . ألقت ما بيدها واصطدمت مسامعها بالأنيــن يصــعد مــن قاع السلاملك . آهات وتأوهات ابنها راضي . حرّكت

داخلهــا الغضب . هاجت وماجت كالثور الجامح داخل الحلبة . قفزت درجات السلم كالبرق . شمّرت عن ساعديها ، وانهالت على المرأة ركلاً وصفعاً . وامـــتدت أصـــابعها إلـــى شـــعرها ، فاقتطفت خصلات كبيرة منه ، وغرست أظافــرها فـــي وجههـــا ، ولم تخرجها الا باصطحاب الدماء معها . ومزقت ملابسهما . في هذه الأثناء .اجتمع سكان الحي ، وفرّقوا بينهما ، ودخلت كل واحـــدة شقتها إلى أن يأتي الرجال . استدعت المرأة أشقاءها الثلاثة الرجال مـــن المـــنطقة المجـــاورة . لبوا النداء على الفور . ربضوا أمام المنزل في انتظار شوقي . الوقت شديد القظاظة ، العرق يتفصد بغزارة من جبين شوقي . اتجـــه شـــوقي ناحية الحارة وأخرج المنديل يجفف عرقه . لمح رهطا من الناس ، يحتشدون أمام باب المنزل ، دس منديله في جيبه مندهشاً . بأبأ من خطواتـــه ، وعندما همّ بالدخول . قالت المرأة : " أهوه ، الجبان بتاعها ، جه .... قـــال شقيق المرأة : " مش تقول السلام عليكم ؟! قال شوقي : " لو قلت ســـلام عليكم ، هاتبقوا جبنات زيّ !! حسب قولكم ! ... تدخل أحد الصالحين قـــائلاً : " كده عيب . إنتم كبار ، ومفيش داعي نفرج علينا الناس .. ودعاهم الشيخ لجلسة صفاء . لكن أحد أشقاء المرأة تهوّر قائلاً : " ماكناش نتاويك ، ونخلـــي الدبـــان الأزرق مايعرفلكش طريق جرّة ، يبقى إحنا نسوان ... قال شـــوقي من خلال ثغر يقطر حزناً . لأنه لم يتعود طوال حياته أن يسب أحداً : " شوف يا ابن الناس ، إحنا عرضنا الموضوع ، وطلعت أختك غلطانة . ولو حـــد فـــيكم مســـني بســـوء . أنـــا لـــيه اهل في الصعيد . مش هايسبوكم . وهايدوروا عليكم واحد واحد . وعيب إحنا جيران . وعايزين نبقى كويسين.

(٣)

وبــدأت حــرب اليمــن ، احتل مكانه بين الجنود الذين غادروا القاهرة سنة ١٩٦٣م تأججــت النار داخل المرأة الأرملة . راحت تقلب المكايد والمصائب علــى صدرها المتحور ، حتى عثرت على بداية الخيط وجدته ملوثاً بالقذارة . نســيجه مــن الحقد والبغضاء . لكن كيف تبدأ ؟ حدّثت نفسها : " لابد أن تكــون علاقتي أولا بحمدية بيضاء . لابد أن أزرع الثقة بداخلها نحوي حتى أصل إلى مرادي " .. تقلقلت في مقعدها فوق الأريكة . أحسّت بأوجاع جروح لم تضمد بعد من آثار المعركة زادها ذلك إصرارا فوق إصرار . انتصبت أمام المــرآة . خصلات شعرها من الجهة اليمنى فارقت مكانها . إنها لم تكتشف ذلــك إلا لحظتــئذ . قالت لنفسها بصوت مسموع : " أيامك سودة يا حمدية . ماكونــتش أديلــك دروس جديــدة .. تحسست خدّيها ، شعرت بألم من آثار أظافــرها التــي غرست كالسكاكين . خطوط حمراء غائرة بجوار حدقة العين قالــت لنفســها : " الملعونة كانت هاتفقع عيني .. تقمصت الأرملة شخصية الممــثلة الــبارعة في إتقان دورها . وكان ذلك من خلال تعاونها معها خلال الــيوم فــي شئون منزلها ، من مغسل ومأكل وغير ذلك من روتينيات الحياة اليومية . وعندما يأتي المساء تستأثر بها في حديث شامل لجميع أخبار أهل

الحـــي من زواج وطلاق وخلافه ، هذا يكره عمرو من أجل كذا ، وذلك يقدم يـــد المعونـــة لزيد لأنه ينتظر منه شيئاً غامضاً . وتظل الاجتماعات معقودة حـــتى ســـاعة متأخره من الليل وكيف لا ؟ فالظروف متاحة ليس لها ضوابط وكانـــت الأيام أقوى دليل على صدق قول الأرملة . كان ينقشع ما يقره القول إلـــى حـــيز العمل فكان بمثابة جذور لصداقة خائنة . نجحت الأرملة في بثها وتأصـــيلها فـــي تربة حياة حمدية . وكان لها أكبر الأثر بعد ذلك في إحداث قطيعة وتفجير قنبلة صنعت شظاياها هوّة عميقة في صدر حياة هنيئة عبرت مســـافات طويلة مع الحياة . وقذفت بقارب الأمان وسط الأعاصير . ضل عن شـــاطئه ، وعندما أحسّت الأرملة بثمار أجنتها وهي تكبر في صدر حمدية . تنفست الصعداء واستعدت لنزع فتيل ما تبقى من متفجرات . وعند هذا الحد رأت ان الخطـــوة القادمـــة لابد أن تنفذ بإحكام حتى تستطيع الانتصار وكأنها تخطط لعملية حربية أمام عدو مغتصب .

عقـــدت الأرملـــة زيارات سرية بين نساء الحارة . أشاعت أن شوقي عندما ياتي من اليمن سيتزوج . عللت ذلك بقولها : " أصل الفلوس هاتكتر في إيده .. فكانـــت النســـاء تصـــدقها مـــن أول وهله . خاصة وأن تاريخها في هذا المضـــمار خـــير شـــاهد على صحة أخبارها . كان يدور في رأسها ، هو أن حمديـــة عـــندما تعلم بذلك من الجيران . ثم تقوم بتعزيزه ، يكون ذلك خارجاً عـــن إرادتها . ولو عاتبتها حمدية بعد ذلك على عدم الإفصاح مباشرة بمثل هـــذا الخبر . فسوف ترد عليها قائلة : " أنا خبيت عنك الخبر ده عشان مش عايزه أزعلك .. وكان ما توقعت . لم تصدق حمدية في بداية الأمر الجيران .

فهرولـــت إلى الأرملة تطرق الباب بشدة . كالضال وسط الصحراء وكالغريق الـــذي يبحـــث عـــن عود قش . وفي أقل من خمس دقائق اندثرت الشظايا . وتفحـــم القلـــب الـــذي كـــان يرقص طرباً من خلال الباب الموارب . جذبت الأصـــابع التي كانت تغني أسفل الصينية . شُرخ الوجدان وتمزقت العواطف الجياشة . صال وجال الشيطان يعبث بالفؤاد يلونه كيفما يشاء . ويصنعه كما يـــتراءى له . صعدت إلى شقتها وداخلها ثورة عارمة لا ينهيها إلا شئ واحد يسبح في رأسها ، هو قتل شوقي..

(٤)

قبعت حمدية فوق الأريكة انكمشت تضاريس وجهها ثم همست بصوت مسموع : " تبقى كده . طيب . والنبي لوريك يا شوقي والنبي لو جبت مال قارون لهاضيعهولك ، بقى كده . عايز تجوز . ماشي يا شوقي . إما وريتك بس لما تيجي .

انقضت الأيام والشهور ثقيلة كالحديد على قلب حمدية . النار تسري في بدنها الذي ازداد سمنة . ليست هناك أخبار عن شوقي . الشكوك تتأصل وتتحول إلى حقيقة لابد أنه تزوج . إذا كان ما سمعته غير صحيح فلماذا لا يرسل خطابا لكي يطمئن قلبي ؟! وظلت الهواجس تناوشها في كل لحظة . انتبه أولادها لشرودها وتوترها . اندهش الجميع . إنهم لم يألفوا منها هذه المعاملة العنيفة . نصحوها بأن تأخذ الأمور ببساطة حتى تتضح الأمور ومعالم الحقيقة المحجوبة . لكنها قذفت بالنصائح عرض الحائط .وانقشع اللين ولم يبق إلا سحب سود وارت وراءها رياح الخماسين .. طرقت الأرملة بابها وأعطتها خطاباً من شوقي . نادت حمدية : " تعالي يا حامد اقرأ الجواب اللي أبوك بعته " .. الأرملة : " أشوفك بعافية يا أم حامد "

الخطـــاب لم يحمل سوى تحيات وسلامات . وشوقي سوف يحضر بعد أسبوع من اليمن ، بعث شوقي من اليمن بخطاب إلى إخوته وأحبابه . يؤكد لهم أنه آت بعـــد أســـبوع . انحرفت الشمس عن كبد السماء في وداعة العذارى . لم يـــبق علـــيها ســـوى ثلاث ساعات وتودع النهار . وصلت السيارة التي تقل شـــوقي ومـــا كـــاد يـــترك مقعدها حتى هرول إليه إخوته الذين حضروا من الصعيد لاستقباله. عانقه محمود وعلي ومحمد ، مرحبين بعد غياب طويل ثم ســـأل شوقي أخاه الأوسط محمود عن أخبار أولاده وزوجته ، وهل نفّذ وعده في الاطمئنان عليهم في غيابه . ابتسم محمود قائلاً : " همه بخير والحمد لله ، وإحـــنا ســـدينا مكانك زي ماتكون موجود بالضبط . وبعدين يا سيدي كلها الســـلالم وهـــاتكون فـــي الشقة .. " صعد الجميع الشقة ، قلب شوقي ينبض بحرارة اللقاء لكن عليه ان يتزرّع بصمام التحكم والتجلد حتى يختلي المكان فيـــنفرد بحبيبـــته وزوجـــته حمديـــة . تعطش لرؤيتها رغم قصر المسافة . صـــهرها كضـــغطة علـــى الـــزناد وعندما هم بدخول الباب ودّ لو انقشع كل الحاضـــرين الذيـــن جاءوا لتهنئته بالسلامة لكن دهمته خفقة كادت أن تطيح بخلجاته جمعاء لابد في الأمر شيئاً غامضاً . حمدية ليست بين المهنئين هذه ليســـت عادتهـــا . رغب في التنصل من بين المحتشدين حتى رقب على كثب أولاده . حامد ، محمد ، راضي ، عزيزة ، نفيسة ، نجية ، نجاة .. منزوين فـــي ركـــن البيـــت . دلـــف إليهم . عانقهم بحرارة . أحس ببرودة اللقاء . استشـــف أن إحساسه لا يكذب . وما انتابه من خفقة مفاجئة . إنما يكون هذا نتيجة كارثة لم تظهر مقدمتها بعد . بعد عناق أولاده السبعة . غلبته الدموع

سـقطت كالشـلال على خديه . لاحظ أشقاؤه ما انتابه من مشاعر فاضحة . سـأله أحدهـم : " ليه الحزن ده كله ؟ .. أجاب شوقي : " دي دموع الفرح بوجودكم .. جفف دموعه بمنديله الميري ، رمى بصره فوق أولاده الصبيان الذيـن أصـبحوا شباباً الآن وأولاده البنات اللاتي أصبحن فتيات ترهف لهن الأنظـار وتخفق لهن القلوب العطشانة . كاد لسانه يفلت فين أمكم ؟ . شرع فـي البحث عن حمدية في كل الغرف ، لكنه خشى من أن يفهمه أحد بزهده عـنهم . فطـن محمود لما يريده شوقي . قام على الفور باحثاً عن حمدية . وجدها في المطبخ تبكي بحرقة . قال : " ليه يا حمدية بتعيطي ، تعالي سلمي علـى شـوقي هوه عايز يشوفك دلوقت . لم تجبه إلا بنهنهة مبهمة . ترجم صـداها . عرف أن إلحاحه لن يثمر . حاول مرة أخرى معرفة السبب ، لكنه لـم يفلح . تركها وشأنها . تملكت شوقي نبرات حزينة أثناء سرده لذكريات الحـرب نعاسـة شوق حميم ركضت فوق حرارة الحديث فقللت من حماسة الكلم . أحس الجمع بضرورة الانصراف حتى يستريح شوقي من عناء السفر . لـم يبق في البيت سوى شوقي وزوجته وأولاده ورغم تشبث الإعياء برب الاسـرة . تحـامل على ساقيه باحثاً عن زوجته حتى عثر عليها تنتحب في المطـبخ . خيل إليه أن حبها ضرب بجذوره في أرض العشق الرحبة وتأصل وذاب فـي سـماء الابـتهالات المقدسـة لدرجة أن حرارة هذا الحب فقدت سـعراتها بمجـرد غياب أحد الطرفين وأنه يتصدع ولا يقوى على الاحتمال وحـيداً حزيناً فوق بساطه الشامخ . حمدية تبكي الآن لوقع الصدمة . اللقاء الأصـيل بعـد غياب ممقوت . ترتجف له المشاعر ويتيه الوجدان في مغبة

أعاصـــير النفس . فتنزوي الكلمات في محاجر التفوه . لهج الى الله في سره . مــد يـــده حـــول خصـــرها اللدن . شرع في ضمها الى صدره المتعطش ، فأشـــاحته بعـــيداً عـــنها . هرعت الى أولادها القابعين في الحجرة . يكتنفهم الحـــزن لما سوف يحدث . إنهم يعلمون مدى تصميم أمهم على تنفيذ الأشياء . لاحـــت في أفق شوقي فكرة . تتطلب الجرأة والشجاعة . لكن ماذا سيقول أولاده الكـــبار الآن ؟! لـــو حمل أمهم بين ساعديه وأغلق الحجرة عليهما ؟! حـــاول أن يطـــرد هـــذه الفكرة لعدم تناسبها مع الموقف لابد أن يطمر هذا اللهيـــب المتقد . على الأقل بعد خلع ملابسه الميري واغتساله من أثر الغبار العـــالق بـــه . وإلى أن يتم ذلك يكون الأولاد قد غطوا في نوم عميق . بعدها يكون السهاد وتسديد الحسابات . حرقة الفراق لا تطفئها سوى حرارة اللقاء . هكـــذا قـــال لنفسه. وبعد اغتساله دخل حجرة النوم . لم يجد حمديه. توجة الـــى حجـــرة أولاده . رمقها منكسة الرأس تسبح وسط بحيرة من الدموع . جلس بجوارها . احتضن أولاده . سألهم عن أخبارهم . طمأنوه بأنهم بخير . قـــال له حامد : " أنا بأشتغل ميكانيكي في ورشة الأسطى ممدوح ". وقال له محمد : " أنا يا بابا باتعلم الخياطة. أما راضى الصغير ، فتكوّر أسفل ذراعيه قائلاً : ــــ أنا يا بابا بأتعلم النجارة. سُرّ الأب لذلك وانتظر تعليق بناته عن أخبارهـــن. قالـــت عزيزة ونفيسة ونجية فى صوت واحد : ـــ إحنا يا بابا ســـيبنا المدرســـة. أمـــا نجاة فقالت : ــــ أنا يا بابا فى المدرسة. ومش هاسيبها أبداً ... قال الأب شوفوا يا ولاد. إللى تشوفوه فى مصلحتكم اعملوه ... وبعد عبور مسافة من الصمت ، قال بعد طرحه شباك عينيه على زوجته

: ـــــ علـــى إذنكم يا ولاد. أنا هاقوم انام أحسن تعبان ... وخطى خطوتين تجـــاه الباب. ثم استدار مستفسراً : ـــ وإنت يا أم حامد ، مش ها تنامى ؟ ... لاذت بالصـــمت. فتيقـــن أن بصـــمتها هـــذا دلال. دلف إلى حجرة النوم. مســـتلقياً علـــى ظهـــره. يتنفس الصعداء. منتظراً على مضض زوجته. قرة عيـــنه. ملاذه. دفئه شتاءاً. وزهرته ربيعاً ، وخيمته خريفاً ، ومظلته صيفاً. ســـطى علـــيه النوم. صارعه. لم يفلح. أغمض جفنيه مستسلماً وفى الصباح ومـــع زقـــزقة العصافير ، واختراق أشعة الشمس العذراء خصاص النافذة ، تقلّـــب فـــى الفراش. لم يجد زوجته. تجمّد ساعده الأيمن. فتح جفنيه واستند علـــى ذراعـــه ، مستديراً برأسه فى أنحاء الغرفة. كأنه فلكى يحاول اكتشاف حـــدث أو كارثة جديدة لم يكن يتوقعها قبل ذلك. أصداء بشرية أقل خفوتاً من صـــوت الهـــواء ، تســـد أذنيه عن سماعه أسباب الجريمة. نظر بازدراء فى فضاء الحجرة وأثاثه وجدرانه الأربعة يستطلع أسباب وجومهم . إنه لم يعتد مـــنهم هذا الصمت الذى شجب أحشاءه. دائماً ومن أول ليلة زفافه إلى الآن. كانوا يشاركون بهجته وسروره. اندفعت الدماء إلى رأسه.

(٥)

لم يفق من غشاوته هذه إلا على صوت حمدية ، التى امتثلت أمامه كالكركدن الـذى لا يذعن لصاحبه إلا لضرورة قاسية جافة. يدها اليمنى على خصرها ، والـيد اليسرى تحمل بقايا ثقلها على حافة باب الحجرة. قالت بصوت تنصّل مـنه الحـياء. وبنبرة معلقمة تحمل إلى مسامعه أنباء انهيار حياة ماضية : ـــ طلقنى !! إنها وإن لم تكن أمامه الآن بشحمها ولحمها. لما صدّق صدى ووقـع هـذه الكلمـة. الـتى اعتبرها فيْصلاً يحول بين سعادته. شرد. لكنه سـرعان ما تعلق بواقعه. دنا منها هامساً : ـــ ماتهزريش يا حمدية بكلمة وحشـة زى دى ... وفترة غيابى الطويلة إللى فاتت كانت غصبن عنى. وأما الجوابات ، ماكانش عندى وقت. انشغالى فى التدريبات والحرب خدْ كل ليلى ونهـارى ... لكـن دون جـدوى كررت حمدية كلمتها : ـــ يا شوقى. أنا بأقولها كلمة. طلقنى .... حدّق فى عينيها بذهول. أقر صدْق تصميمها. رفع راحته على وجهه. ليدرأ بها سيوفاً متربصة مجنونة. تشقق زؤاباتها مصيره كلـه. وتحـيله إلى رمز بائس لشقاوة الوجود. اغتاظت حمدية لهذا الموقف السـلبى. صـرخت قائلـة : ـــ إنت ما بتسمعش ، أنا بأقولك طلقنى وإن ماطلقتبيش بالراحة ، هاتطلقنى بالعافية ... فزع الأولاد من فراشهم على أثر

هــذا الحوار. لاستطلاع ما يحدث. قال شوقى بحزن : ـــ ليه عايزة تتطلقى يا حمدية؟! فيه حاجة حصلت؟! قالت حمدية : ـــ والله اسأل نفسك ، واسأل الناس ... قال شوقى مندهشاً : ـــ اسأل الناس !! وأسأل نفسى !! عن إيه ؟! ... قالــت حمديـــة : ـــ الكلام مافهوش فايدة. كفاية الأيام السودة اللى عشـــتها معـــاك ... طـــرق الباب الخارجى. فتح حامد. دخل (على) شقيق شـــوقى. أســـرع إلـــيه شوقى مستنجداً مستفسراً بعد جذبه بعنف إلى حجرة مجـــاورة قـــائلاً : ـــــ إنت يا على مش كنت بتيجى هنا ، وأنا غايب؟ ... ـــــ أيوه كلنا. أنا وإخواتك كنا بنيجى هنا. ليه ؟ فيه حاجة ؟! . قال شوقى وهـــو يتحســـس رأسه ليتأكد أنها مازالت مكانها : ـــ افتكر يا على ... فى هذه الأثناء. دخل شقيقاه محمود ومحمد ، أثناء قوله : ـــ مفيش حد غريب كـــان بـــيخش البيت ؟! احتدم النقاش. وهبّ محمود مهدداً : ـــــ إيه اللى بتقولـــه ده يا شوقى ، دا إنت لو ماكنتش أخويا الكبير ، كنت شتمتك ، وكنت ضـــربتك بـــالـــ ...... إزاى يـــا خويا تقول كلام زى ده؟! ... تسلل راضى هامســـاً فـــى أذن أبيه قائلاً : ـــ إنت عارف ماما زعلانه ليه ؟ قال الأب : ـــــ ليه ؟ علشان الناس كلها بتقول إنك هاتتجوز واحدة تانية ... ـــ بقى كـــده طيب روح إنت يا حبيبى ... وخرج شوقى مسرعاً إلى بيت حازم. طرق الباب. فتحت زوجته ، التى رحّبت به. وسألته عن أسباب وجومه. قال لها : ـــ أنا جيت من اليمن من هنا ، ولسه ما استريحتش. لقيت مراتى بتقوللى طلقـــنى. ليه ؟ مش عارف !! حاولت أعرف السبب ، راسها وألف سيف إن مـــا تنطقش غير كلمة (طلقنى) .. ثم اعتدل فى جلسته. وبعد تنهيده قال :

ـــــ الله يـــرحمك يـــا أبو حمدية ... وأكمل حديثه : ـــ عشان كده أقول لأخوهـــا ... سألها عن حازم : ـــ هوه فين حازم؟ ـــ راح مشوار وزمانه جـــاى. ثـــم استرسلت : ـــ الست مننا إذا طلبت الطلاق من جوزها ، تبقى محرّمة عليه ... طرْق على الباب الخارجى. دخل حازم. عانق شوقى قائلاً : ـــــ حمـــد لله على سلامة وصولك. قال شوقى بفتور : ـــ الله يسلمك يا حـــازم .. ـــــــ مالك يا شوقى لونك مخطوف ليه ؟ سرد شوقى ما حدث بالتفصـــيل ، غضـــب حازم وقال : ـــ شوف يا شوقى ، إطمن. هيّه دلوقت مالهـــاش حد غيرك إنت ، حاول ترضيها. يمكن واخدة على خاطرها علشان فـــترة غـــيابك ... ــــــ يا حازم إفهمنى ، أنا عايزك تيجى معايا واسمعها بنفســـك ، عشـــان تقولها كلمتين يعقلوها ... قال حازم متظاهراً بانشغاله ، مبرهـــناً ذلك بنظرة فى ساعته بين الحين والحين : ـــــ إنشاء الله هاعدى علـــيكم المغرب. علشان دلوقتى أنا مش فاضى. وخرج شوقى قاصداً منزله. تطـــن فـــى أذنـــيه كلمة (طلقنى) . حدّث نفسه وهو فى الطريق ، إيه إللى حصل ؟ إلهمنى يا رب الحقيقة والصح قبل فقدان الوعى. داعبته كلمات إبنه الصـــغير راضـــى عـــندما قال له : ـــ إنت عارف ماما زعلانه ليه ؟ لأن الـــناس بتقول إنك هاتتجوز. كلمات بريئة ، لابد وأنها صادقة ، لا مفر. بقى أنـــا بـــأدور علـــى الأسباب. والسبب واضح قُدامى. وقبل أن يطرق الباب ، ســـمع صـــوتها الرنان يصرخ معلناً لأشقائه ضرورة حثه على تطليقها منه. وإن رغبـــتها ســـوف تـــنفذ لا محالة. ضاربة بحياتها عرض الحائط. تساءل شـــوقى : ـــــ لازم فيه حاجة غامضة. أنا مش عارفها. مش ممكن إشاعة

جـــوازى يخلـــيها تكرهنى بالشكل ده !! . اخترق اذنه تهديد (على) : ـــ
هـــوه مافيش حد عاجبك فينا ولا إيه؟! طيب هافتح بطنك علشان أريحك ...
وهـــرع إلى المطبخ لإحضار السكين ... فى هذه اللحظة ، طرق الباب بشدة.
بعد فتحه. تجوّل فى الشقة باحثاً عن (على). وجده قادماً من المطبخ رافعاً
الســـكين. قابله. جذب منه السكين قائلاً له ولشقيقيه محمود ومحمد : ـــــ
لـــو سمحتم. مش عايز أشوف حد منكم هنا تانى. إتفضلم برّه ... انتظر حتى
انصـــرفوا جميعاً. ثم أعقبهم وسط نـهر الطريق قائلاً : ـــ الشيطان [illegible] يا
علـــى وانتصر عليك ، بقة يا راجل تودى نفسك فى داهيه. كده بقى [illegible].
ربـــنا بعتنى فى الوقت المناسب عشان امنعك. عشان عيالك و[illegible] ... ثم
التفـــت إلـــى محمـــد ومحمود قائلاً : ـــ مفيش حد فيكم دخل وراه المطبخ
ويمنعه من إللى كان هايعمله؟ رد محمد : ـــــ والله يا خويا الخلاص منها
أحســـن ، رد محمود : ـــــ الله فى عونك يا خويا ، وربنا يقويك علينا ...
قـــال شـــوقى لأشقائه : ـــــ إنتم سيبتم الصعيد وجيتوا مصر عشان لقمة
العـــيش. وكل واحد فيكم بقي ليه بيت وزوجة وأولاد . لو كانت أم حامد
إتقتلت . كنا رُحنا في داهية . وعيالنا وعيالكم مين اللي كان هايربيهم؟ . رد
محمـــود :- بقولـــك إيه يا شوقي ، ما تطلقها وتريح راسك . قال شوقي :-
العـــيال ياخويا . وهمهم كبير . ولسه عايزين خدْ مة ... رد محمد :- خلاص
إجـــوز علـــيها . قال شوقي ضاحكاً :- إذا كنا لسه ما خلصناش من الإشاعة
الأولانـــية ، هادخلـــنا في إشاعة تانية .... وتلفت حوله خوفاً من تطاير مثل
هـــذا النـــبأ لآذان الحـــارة ... ثـــم أردف قائلاً :- ياجماعة [illegible] دي .

مشـكلتي أنا. وأنا هاعلجها . لكن التهور هايدخلني . السجن أو لعشماوي ، وهـيه هاتروح التربة . والولاد في داهية . علي العموم ، ماتزعلوش مني . واللـي حصـل ده في صالحنا كلنا . وصافحهم . ورجع منزله .... اتجه كل مـن محمـود ومحمد وعلى ناحية دكان البقالة . ليسلموا علي عمهم . منذ إحالته للمعاش ، وهو يتاجر في بعض السلع الغذائية ، ومعه زوّجته المسنة تعاونه . وفي فترات الراحة يتخذ من القرآن صديقاً . جلس الجميع ودار هذا الحوار .....

- العم :- أهلاً . أهلاً . إزيكم يا ولاد . إنتم جايين منين ؟
- محمد :- من عند شوقي
- العم :- هوه جيه من اليمن ؟
- محمود :- أيوه وصل .
- العم :- إمتى ؟ دا أنا ماشوفتهوش من ساعة ما سافر اليمن .

ثم نظر إلي (على) قائلاً :- مالك ياعلى ؟ وشك متغير ليه ؟

- على :- أنا يا عمى كنت ها قتل أم حامد إنهارده .
- زوجة العم :- هيّه حصلت قتْل يا على ؟! ليه كفا الله الشر ؟
- محمود :- راسها وألف سيف . عايزة تطلّق .
- العم :- بعد ما خلفت أُ ورطة العيال دية . عايزه تطلّق ؟!
- زوجـة العـم :- ونـبى لو(ثريا) كبيرة شوية . كنت جوز تهاله . إنشـاء الله أول مـا تخلـص بنتي السنادى الإ لزامى ها طلعها من المدرسة .....

- على :- أمَّال فين إبن عمى جمال ؟
- العم :- في المدرسة بيصحح امتحانات .
- محمد :- يا بخته متعلم . مش زيّنا شغّالين فواعلية .الشتّا في مصر . والصيف نجمع القصب في الصعيد .
- زوجة العم :- مش هاتسافروا الصعيد قريب . تطمنونا على الجماعة ...
- محمود :- كلهم كويسين هناك . إحنا لسة جايين يا مرات عمى .
- العم :- وإزاى مراتك يا على . مفيش أمل فى الخلفه برضه ؟
- على :- والله ياعمى دُخنا على الدكاترة اللي يعمله ربنا كويس .
- زوجة العم :- وإزاى عيالك ومراتك يا محمود ؟
- محمود :- الحمد لله يا مرات عمى .
- زوجة العم :- وإنت يا محمد . مراتك وعيالك كويسين ؟
- محمد :- الحمد لله . يا مرات عمى . بخير والحمد لله .
- على :- بالإ ذن يا عمى . بالإ ذن يا مرات عمى .

يقوم الثلاثة ، وبعد مصا فحتهم للعم وزوجته . ينصرفوا إلي منازلهم

(٦)

فــتح شوقي باب الشقة . وشق الصالة باحثاً عن زوجته حتى وجدها بجوار أولادهـــا. جذبها وأوقفها . ونظر إلى أولاده . قائلاً :- تصبحوا علي خير يا ولاد .. واتجه إلي غرفة النوم . قابضا علي أصابعها. بشدة. فلم تجد بداً من ان تتبعه بخطواتها الثقيلة قائلة:- سيبني انت موديني فين ؟ !. . . تجاهلها ولــم يــرد. حتى أوصد الباب عليهما. ثم قال لها بسخرية رقيقة تقيس مدى صـــدق ما وصلت إلية شكوكه:- وريلي اللي بتحبيه وأنا أجهزك ، وهاعيش طــول عمري راهب لولادي. بُغتت (حمدية) من هذه المصارحة. فانصاعت لمغبة الكلمات المرتكنة فى فيها غير عابئة بفاعليتها البائدة قائلة :- طيب ما هـــو إنـــت كمان هاتتجوز !!. . . – مين اللي قال ؟ ! – الناس كلها بتقول ،روح اســـألها . . . – حددي. قولي مين بالتحديد ؟ ، عايز أعرف مين اللي عايـــز يخرّب علينا ؟.التفت إليها بعد إحداث طرقعة بيديه ، ليضيف لمخارجه حـــرارة الإقناع قائلاً : ـــــ شوفى يا ستى. بالنسبة لحكاية جوازى إللى انتى ســـمعتيها ، إنســـيها خالص. وأنا هاخليكى تغيظى الناس ، وها ديكى ١٠٠ جنيه. وتجيبى بيهم كل حاجة بنفسك. واللى فى نفسك كله. وهاعتبرك مراتى

الجديـدة. ايـه رايك بقى يا ست الكل ؟ ... دنا منها مربتاً على كتفيها ، معـتقداً أنـه عبر الحواجز. تملصت بعيداً عنه . واقتنصت الفرصة وارتدت ثـوب عشماوي قائلة بنبرة القرار الذي لا رجعه فيه ولا استئناف فى بنوده :- انـت عايـز تربي عيالك ؟ أجاب مراوغاً كالقابض على جمرة من نار : ــــ طبعاً. عايز أربيهم ، فيه مانع ؟! قالت حمدية بكل ثقة : ــــ شوف يـا شوقى. لو ما طلقتنيش بالراحة وبدون شوشرة. أنا هاروح فيك السجن. ولو جيبت مال قارون. هاخليك تشحت ... زادها يقيناً أن شوقى سيتزوج. فهـو يمـتلك الآن ١٠٠ جنيه. وكما أبلغتها الأرملة. انه سيأتي من اليمن. وتحت يده بانكنوت لا يحصى. كوّر شوقى قبضته في الهواء. وكاد يهوي بها علـى رأس الحـرباء التـي تسكنها. لكنه آثر الانسحاب. خمسة عشر يوماً قضاها وسط الاضطرابات. وهواجس الخوف. لم يذق طعم النوم. كم من مرّة وسـوس له الشيطان بأن يخنقها ويريح نفسه. لكنه كان يسرع حينما تواتيه هـذه الفكـرة إلى كباريه الهلال. يرتع أقداح الويسكي التي كانت تنسيه كل شيء إلا الغناء والسعادة.

موقـف زوجته معه بمثابة عدم توازن نفسي لطبقة تربتة النفسية ، تجريف لأسـس الصلاح داخله. استمر يرتاد الكباريه، ويترنح في عودته إلى منزله كعـود القش الذي تعبث به الرياح. متحسساً السلاملك وباب الشقة مردداً :- يـا خارجـة مـن باب الحمّام ، لابسة الفوطة. إديني خدك. أحطلك فيه ميت بوسة. ثم يقذف بنفسه فوق السرير. منكفئاً على وجهه حتى الصباح وقبل موعد سفره بيوم ، أعدّ حقيبته.

اتجه ليسلم على عمه في دكان البقالة.

العم :- إيه يا شوقى. إنت بتزورنا كل سنة ولا إيه ؟

شوقى :- معلش يا عمي. الحياة مشاغل.

العم :- عملت إيه في مشكلتك مع مراتك. اللى سمعناها من إخواتك ؟

شوقى :- والله يا عمي. أنا بأحمد ربنا. إن الموضوع ده. عدّا على خير. دا أنا واخواتي كنا هنروح في داهية من تهور (على)

العم :- الحمد لله. على العموم. خد بالك من نفسك يا بني وإنت مسافر.

تقترب ثريا وتصافح ابن عمها. فينظر إليها شوقى متأملاً قائلاً لنفسه :- لو كنـت كبـيرة شوية يا ثريا. ثم أفاق من شروده. وصافحها. وصافح زوجة عمـه وعمـه وانصـرف متجها إلى إخوته.وسلّم عليهم. وغادر مصر إلى اليمن.

عـندما وصـل الوحـدة العسـكرية لزم فراشه. أبلغ عيادة مشتكياً من آلام اجتاحـت أسـنانه وضروسه. لم يعتد من أصحابه قبل سفره سوى البشاشة. سـألوه عـن أسـباب وجومه. ألحّوا عليه أن يفرغ ما في جعبته من هموم. قـاوم هـذا الإلحاح بشدة. قال لنفسه :- ماذا أقول لهم ؟ أأقول إن زوجتي تطلـب منـي الطلاق؟! أو خيرتني بين الطلاق والسجن ... وحتى لو أدليت

بهــذه التصـــريحات. سوف يتغامزون عليّ بعد ذلك. ويبتكرون أقاويل جديدة تـــتدلى مـــنها أحكـــام جديدة. وسوف ينتهون في النهاية بان زوجته عاشقة لـــرجل غيره .... إذاً لابد وأن يصمت إلى الأبد ، على هذا السر ، بدلاً من إضـــافة زلـــزال آخـــر يعجـــل بانهـــياره كلية. تردد على طبيب الأسنان في المستشـــفي العسكري مراراً .وما تبقي من أسنانه غاب قلقاً في مكانه ،، تـــبدّل الطبيب بطبيب آخر مشاكس. يتهم المريض بأنه متمارض دون توقيع الكشف الطبي عليه. اتهم شوقى بأنه متمارض. قال له شوقى :- حرام عليك يا دكتور. أنا جاى من على بعد خمسة وأربعين كيلو وسط الحجارة والرمال. وأنا أدّامك متبهدل . ده كله وتقول إنى متمارض . تأسف الطبيب. ونظر في أورنـــيك العيادة. ثم قال :- اتفضل يا شوقى. اجلس على الكرسى. سأله :- إيه هيّه مهمتك العسكرية ؟

ســـواق اللواء رئيس القطاع الشمالى ،،، - افتح بقك ، اندهش الطبيب ، قـــائلاً :- يـــا. دي ضروسك كلها بايظة أشار له شوقى ناحية جذور الألم ، وقـــام الطبيب برش البنج وبعد برهة خلع ضرسين ، انقضى ثلاثة شهور ، يلازمـــه المـــرض وموجات من الصداع ، حتى جاء موعد الأجازة ، رفض استلام التصريح ، علم اللواء. رفيقه في اليمن وجاره في القاهرة ،، امتثل أمـــام اللـــواء. سأله ، :- ليه يا شوقى. مش عايز تستلم التصريح ؟ مش عايـــز تشـــوف مـــراتك وعيالك ؟ إذا كانت الفلوس مقصرة معاك خد فلوس وانزل. قال شوقى ورأسه منكسة على صدره :- لا يا فندم الفلوس موجودة والحمـــد لله. وعلى العموم أنا مقدرش أرفض لسيادتك طلب. دنا منه اللواء.

هـزّ كتفيه بحزم قائلاً :- مالك يا شوقى ؟ ما تخبيش عليّا حاجة. يمكن اقدر أساعدك. قال شوقى :- أصل يا فندم كنت تعبان. وضروسي قامت عليّا ومكنتش طايق نفسي. قال اللواء مبتسماً :- يا راجل شد حيلك . بكرة تخف وتبقى زي الدبابة. بكرة لما تلاقي نفسك فى وسط عيالك هتنسى التعب ... ثم ضغط على ذراعه مواصلاً كلماته التى تنم عن شقاوة المداعبة :- ولما تلاقـي نفسك جنب مراتك هتخف على طول. ابتسم شوقى بسخرية لا يعلم محتوياتها إلا هو قائلاً :- طبعاً يا فندم. كلام حضرتك مضبوط.

(٨)

انشـــغل قلـــب حامد بالحب. وتكررت زياراته لعمه محمود في الطالبية. (شـــربات) أصـــبحت له مـــرآة يرى فيها نفسه فهى ابنة عمه وحبيبته وزوجـــته القادمة. لكن هناك داخله حلماً آخر. يريد امتلاك سيارة خاصة بـــه هـــو. عـــاش أحلام اليقظة تخيل نفسه فى نزهة على ضفاف النيل وســـيارته تنـــتظره وأولاده يتقافزون هنا وهناك. لم ينس الشقة. كل هذا يحـــتاج إلـــى مـــبالغ. قرّر السفر إلى الخارج. إلى العراق. وبات يستعد لتدبـــير المـــبالغ المطلوبة لهذا الغرض. فهو يرى أن عمله فى الورشة مؤقـــت. وجلوســـه أمام عجلة القيادة طموح لابد من تنفيذه. أما شقيقه الـــثانى (مجمـــد) وقع فى غرام ابنة عمه (محمد). وأصبحت فاطمة هـــواءه ونســـيمه فـــى حـــياته القادمة. وتعددت لقاءاته معها. يرسمان حـــياتهما القادمـــة. ويغـــرفان ما يشاءان من تطلعاتهما المستقبلية. فقد أصـــبح محمـــد يجـــيد الحياكة. وسوف يجاهد فى حياته القادمة لتجهيز حـــانوت يســـتقبل فـــيه زبائنه. أما (راضى) فقد كان صغيراً لم يظهر طموحـــه بعـــد. يتنقل بين الورشة والمنزل وقضاء الاحتياجات المطلوبة

بيـــنهما. جاهدت (نجاة) فى دراستها. كانت طموحاتها تتعدى إمكانيات قدراتهـــا. كانت تتمنى أن تدخل المدرسة الثانوية. ثم كلية الهندسة. لكن المشـــاكل الـــتى كانت تختلقها أمها. أحالت دون تحقيق رغبتها. ودخلت أولـــى أعوامهـــا فى المدرسة التجارية. وإتخزن كل من عزيزة ونفيسة ونجـــية من المنزل مركز تدريب كربّات بيوت لمن يتقدم لهن من أزواج فى المستقبل.

****

كانـــت الأرملـــة المستشار الأول لحمدية. وفى إحدى الجلسات قالت لها الأرملة : ـــ بيعى العفش يا حمدية ، جمدى قلبك ، هايعملك إيه يعنى ؟ هايقـــتلك ؟! مش ممكن !! ، هايطلقك ؟! ومالو. الشقة من حقك. سألتها حمدية : ـــ وإيه الفايدة من بيع العفش ؟ . ـــــ هايجيب عفش جديد ، بفلـــوس جديدة. بشوكها ، من فلوس اليمن. ـــ ولو طلقنى ؟ ــــــ إبقى هاتى عفش تانى بفلوس العفش الأولانى. إوعى تترددى. نفذى إللى قولـــتهولك علـــى طول. هاتدعيلى بعد كده ... ونجحت الأرملة فى زرع الخـــراب داخـــل حمدية. وقامت حمدية وتلفعت بملاءتها. اقتنصت فرصة خلـــو الشـــقة من أولادها. فالصبيان فى عملهم. والبنات عند أعمامهم. حتى لا يعارضونها على ما هى قادمة عليه.... قابلت عبده بركات. تاجر الموبيلـــيا. قالـــت له : ـــــ أن لديها حجرة صالون وحجرة نوم نصف عمـــر. تريد أن تبيعها له. رحّب الرجل ، ورافقها إلى المنزل. وبعد قليل

كـــان عمالـــه هـــابطون صاعدون. وقفت حمدية تتابع العمال وهى تدس الثمـــن فى صدرها وتقول لنفسها : ـــــ أيامك كلها غبرة يا شوقى. يا ذيل الكلب.

****

اســـتلم شـــوقى التصـــريح ، وأعد حقيبة سفره. فى الصباح غادر اليمن إلى القاهـــرة. شـــغله فى رحلته. يا ترى يا حمدية عملت إيه ؟ لازم تكون رجعت لرشـــدها ... وأثناء تحليق الطائرة فوق أهرامات الجيزة. لم يهتم بشموخها وعظمـــتها بقدر شروده الذى تمزّق وسط الفيضان. الشمس فى كبد السماء. وصـــل شـــوقى الحارة ، تطلع إليها بنظرات مبعثرة. وقعت عينيه على بعض المـــارة من الرجال والنساء. لاحظ عيونهم وهى تسطو عليه بقسوة الإشفاق يتـــناثر حول أذنيه همس مبهم غير واضح. اضطربت نبضات قلبه. ردد بين شفتيه : (حسبى الله. لا إله إلا هو. عليه توكلت . وهو رب العرش العظيم) صعد السلم. وصل إلى باب الشقة. وجده مواربا. كانت حمدية قد رمقته قادما من خلف خصاص النافذة. عندما دنا من الباب الرئيسى. تسللت وقبعت على بلاط الصالة تستت لتنفيذ خطة الأرملة. دخل شوقى من باب الشقة. لم ير فى المواجهـــة مكتـــب نجاة. اندهش لعدم وجود مقاعد الصالون. لم يعر لزوجته انتـــباها. رغم أن نظراته مسحتها سريعا. أسرع إلى بقية الحجرات يستطلع الأمـــر. لـــم يعثر على حجرة النوم. ولم يجد الأولاد. سُجِنَتْ الكلمات فى فمه تعلـــن شللها. وفى اللحظة المناسبة. تذكّر السجن والمشنقة والتشريد. فآثر أن يقـــبع بجوارهـــا مـــتربعا على البلاط. مستطلعا وجهها وقناعها الجديد.

بداخلــه آلاف الأسـئلة التى تزاحمت أمام هذا الجنون الأحمق. راودته فكرة أوشــك علـى تنفيذها. وهو أن يُبلغ عنها. مستشفى الأمراض العقلية. لكنه طرد هذه الفكرة عندما. تذكّر أولاده. اللذين أصبحوا كباراً الآن ماذا سيقولون عن أبيهم الذى أدخل أمهم مستشفى المجاذيب؟ ماذا يقول الناس فى الحارة ؟ سـوف تكـون حكايــتهم على كل لسان. لقد بدأت الآن نصف الحكاية. ومن الإمكــان عــلاج مــا حدث. بدلاً من التمادى ، وقذف أعواد جديدة من القش وســط النار. وإذا كانت هى مجنونة. فأنا العاقل. وشعر داخله ينادى ملائكة الحكمـــة و الصبر من السماء. وما كاد يلفظ بأولى كلماته حتى سبقته زوجته :ـــ قاعد كده ليه؟ عايز منى ايه؟ سألها وهو يدير عينيه ومشيراً بيديه فى فضــاء الشـــقة:ـــ فين العفش يا حمدية؟!. صفعت براحتها اليمنى الحائط المجــاور لهــا بشدة. وقالت:ـــ بعته. أيوه بعته، ـــــ ليه بعتيه؟! ـــــ علشــان تطلقنى... انفجر فيها قائلاً:ـــ يا حمدية حرام عليكى. أنا جاى من ســفر. وبأحســبك عاملة مفاجأة تفرحنى. ألاقيكى عاملة مصيبة تبكينى!! ده اســمه كــلام برضـــه.؟! ـــــــ ماتلفش وتدور عليّه. إنت هاطلقنى. يعنى هاطلقــنى... اقترب منها قائلاً لها فى تودد:ــــــ شوفى يا ستى. أنا هاعتبر ان حــريقة كلــت العفش. ومش هاسألك العفش راح فين. وبرضه كمان من حقــى إنــى أرميكــي فى الشارع، ومفيش حد هايلومنى. لكن أنا هاسامحك. عشان الولاد. وكمان يا ستى أنا معايا فلوس كتيرة، وهاشتريلك عفش جديد. وهاعتــبر نفسى اتجوزت جديد. دا إنت أم عيالى برضه. مش كده ولا إيه؟. تبيــن لحمديـــة أن اقتراحات صديقتها الأرملة تُنفذ بالحرف الواحد. فامتطت

عــنادها. خاصـــة عندما تذكرت أحد أقوالها المأثورة (قصقصى ريشه عشان مايحطش على عش واحدة تانية) استرجعت حوار زوجها. استنتجت منه أنه حــتى ولو نفّذ ماقاله فى التو وأحضر لها العفش الجديد واحتفظ بها واستبعد فكــرة طلاقها. فإنه سوف يتزوج عليها. وما يقوله فض مجالس. وهو الآن اعــترف بأن معه فلوس كتير. إذن لابد وأن أقصقص كل الريش حتى لايطير فى أى مكان. هكذا ساورتها نفسها. شردت بذهنها عن كلام زوجها وأبحرت فـــى قنوات الغيرة الحمقاء. تضرب نصائح زوجها بعرض الحائط دون مبالاة لأى نــتائج... انقضت مدة الأجازة فى جو من الكآبة. غادر شوقى مصر إلى اليمن.

دبّـــر حـــامد المـــبلغ المطلوب. أخرج جواز السفر. تصفّح أوراقه. نظر إلى صـــورته. عاهدهـــا بـــأن يتسلح بالصبر والمثابرة. مدّ يده ليصافح شربات. أحـــس بـــدفء المســـتقبل يـــناديه. نظر إليها. وجد أن عيون الحياة تمد له آبارهـــا. لمـــح ابتسامة الفجر على شفتيها وهمّ بتقبيلها. لكنه فوجئ بزوجة عمـــه تمـــد يدهـــا وتصافحه بحرارة داعية له بالتوفيق. وبعد أن أنهى عمه (محمـــود) الصـــلاة. عانقه داعياً له بأن يفتح الله أمامه كل الأبواب المغلقة. وغـــادر حـــامد مصر. وتسلم عمله فى العراق. فى ورشة إصلاح السيارات. أحبه صاحب الورشة واعتبره إبناً من أبنائه.

****

اتفـــق أشـــقاء شوقى الثلاثة محمود ومحمد وعلى مع عمهم وزوجته وإبنته وإبنه جمال على ان يشدو رحالهم إلى شنهور بالوجه القبلى وهى قرية تتبع مركز قوص بمحافظة قنا. وهى مسقط رأسهم جميعاً. لزيارة أولاد عمومهم.

وزيـــارة قـــبر أبـــيهم وأمهم. وتلقين أبنائهم دروساً فى صلة رحمهم. مهما ابتعدت المسافات.

وفـــى الطـــريق داعب محمود عمه قائلاً :ــــ شغلك فى البوليس. ومجيك مصـــر. هـــوّه اللـــى شجّع شوقى. وإحنا بعد منه. قطع خادم القطار حديثهم بقوله :ــــ تذاكر. فمد (على)، يده بالتذاكر إليه قائلاً :ــــ احنا رايحين قـــنا. رد خـــادم القطـــار قائلاً :ــــ ياه. خللى تذاكركم معاكم، هاعدى عليكم بكره. فاستغرق الجميع فى الضحك.

****

انشـــغل شوقى بالأفكار الهدّامة. التى باتت تهدد حياته وأيامه المقبلة. تذكر آخر كلمات من زوجته :ــــ طيب يا شوقى إن ما كنت أوريك، مايبقاش أنا حمديـــة.... زوجـــته وأولاده وعمله ملؤا عليه حتى الوقت المخصص لصلة الـــرحم. قـــال لنفسه :ــــ ما ذنبى أنا فى تحمل هذه المآسى لوحدى؟! قضى شـــوقى فى اليمن خمسة شهور. وقبل رجوعه توجه إلى البنك وقام بتحويل مدخـــراته إلى بنك القاهرة. ثم رحل نهائياً إلى مصر. كانت الساعة العاشرة صـــباحاً حيـــنما وطأت قدماه أرض المطار. استقل تاكسى إلى المنزل. صعد الـــدرج. طـــرق الباب. فتحت عزيزة إبنته. عانقته بشدة. هرول إليه البنات. إنهلن عليه يغترفن حنان الوحشة. كانت عزيزة مثل أخواتها تشعر بأن أمهم مخطئة لا محالة. وأنها تقسو على أبيهم. وكم من مرة احتد النقاش أمامهم. لكـــن لضيق ثقافتهن وخروجهن من التعليم مبكراً. ماعدا (نجاة). آثرن عدم

التحـــيز. رغم حبهم الشديد لهما. أما محاولتهن الواهية اليتيمة فى إقناع الأم بـــأن تعدل عمّا فى رأسها من أخطاء تشيب يوماً بعد يوم. فقد باءت بالفشل. كانـــت تعـــرض عنهن بإباء وشمم. لعدم قدرتهن على التعبير لمثل هذه الأم المتوحشة التى تحتاج نوعاً خاصاً من المعاملة الميتوفيزيقية. وإذا لم ترتدع بعد ذلك فالحل الوحيد الذى يُرجعها إلى صوابها. هو مدفع رشاش يعيد إليها اتـــزان عقلهـــا المـــتورم بفقاعات الغباء والبهيمية. كانت هذه الأفكار تراود زوجهـــا. حـــتى نجاة التى فى مدرستها حينئذ، والقادرة على التعبير تقوقعت داخل اسوار أنانيتها. تجاهد وتكابد من أجل الحصول على شهادة....حتى إذا وضـــعت الشـــهادة بجوار هيكلها العظمى، جاء العريس مبكراً. فيخلصها من هـــذا المـــناخ الخماســـينى... أما الذكور. حامد ومحمد وراضى فيمكثون فى عملهم طيلة النهار. وفى الليل ينبسطون كالفراش سواء بسواء. كانوا أحزاباً مســـتقلة. بعد حفاوة الاستقبال سألهم :ـــ فين أمكم؟!. أجابت نفيسة :ـــ مامـــا عند جارتنا الأرملة... قال الأب :ـــ روحى يا نجية إندهيلها... خلع الأب ملابســـه. وأعـــد له البـــنات المياه الساخنة للاستحمام ، وتناول طعام الغـــذاء. وما كاد ينتهى من آخر لقمة ، حتى سمع صوت زوجته ينهال عليه كالسياط : ـــ جيت يا شوقى. حمد لله على السلامة. شوف يا شوقى. نفذ إللـــى قولـــتهولك. العـــيال واقفيـــن. ومش عايزة فضايح ... انسحب البنات الواحـــدة وراء الأخـــرى إلـــى حجرتهن. يتابعن. مسلسل المعركة. لم ينطق شـــوقى. بـــل أخـــرج حافظة نقوده المنتفخة ، فتحها واستل منها عدداً من الأوراق المالـــية. وناولها إياها. قائلاً : ـــ أنا وعدتك المرة اللى فاتت انى

هاجيــبلك أوضة نوم وأوضة صالون ، بدل اللى راحو ... صمتت حمدية ولم تنــبس ببنت شفة. وكأنها غرقت وتخدرت من ضربات أمواج المياه الشرسة لهــا. أحسّــت أنهــا وقعت فى فخ. تمنت لو أن صديقتها الأرملة معها الآن. لتــنقذها مما وقعت فيه من ورطة. بعد برهة طنّت فى أذنها فكرة. اعتبرتها نــتاج ثمــار دروس سابقة. وهى أن تمد يدها. وتأخذ الفلوس. وتشترى بها عفشــاً جديــداً. ثــم يكون هناك إملاء شروط أخرى. أقسمت بأغلظ الأيمان. بيــنها وبين نفسها ، أن تقص ريشه وتنحل وبره. وتقمصت شخصية الثعلب الــذى انقلــب علــى ظهره ، وبعث برائحته الكريهة عندما وقع فى الفخ ... قالــت له بعــد صــمت يهد الجبال ، وبعد تناول النقود : ـــ شوف يا سى شوقى. الفلوس دى. العفش هايجى بيها. وتموين البيت كله من سمنة وسكر وشاى ورز ومكرونة وزيت لازم يكون موجود ... انتفض شوقى مرحاً وقال : ــــــ وأنا موافق يا حمدية. وكمان يا ستى أنا شايل مع (برعى) البقال مــبلغ كبــير. اللــى إنت عايزاه خديه منه. وطلباتك يا ست الكل. احنا نقدر نــزعلك؟! إبتسمت حمدية ابتسامة باهتة ، صفراء تعكس ما فى داخلها من مكر وخبث. بدأت فى تنفيذ الخطة. وتحقيق ما عزمت عليه.

(١٠)

انطـــوت صـــفحات الليالى وأعقبتها صفحات النهار. وحامد يرى شربات فى مياه الفرات. يداعبها وتداعبه. يقذفها بقطعة من حجر فتهتز صورتها لتفاديه وتختـــبىء وراء صـــخرة أخرى. فيلهث وراءها ويبتسم. لم يصدق صورتها النهائية فى ذهنه. عقد آلاف المقارنات بينها وهى صغيرة والآن وهى كبيرة. يقلـــب صـــورتها بين أصابعه فيزيده ذلك إصراراً على الصبر والصمود فى غرْبـــته. أمامه ثلاثة أهداف (العفش والسيارة والشقة). ذهب لصديق له ، تعـــارف عليه من خلال تردده فى الورشة. كتب له خطاباً لشربات يشرح فيه مشـــاعره وعواطفـــه. وسهام الصبر التى نالت من قلبه فأدْمته.وكتب خطاباً آخر لأهله يطمئن عليهم. ويبثهم شوقه إليهم جميعاً ... جاءه الرد والدعوات والســـلامات. ثم قرأ عليه صديقه الملحوظة (أخى العزيز حامد. أعرفك. بأن شباب المنطقة يتنافسون على طلب يد فاطمة. وعمك محمد خيّرنى إما التقدم رســـمى وإمـــا يقـــبل أى شـــاب من المتقدمين. ولذلك أرجو إرسال أى مبلغ لأشـــترى بـــه الشبكة. أخوك. محمد شوقى ... لم يتردد حامد ، وعلى الفور أرسل لأخيه أكثر مما أراد. واشترى محمد الشبكة لفاطمة.

قــرأ ابــن العــم جمــال فى الجريدة أن شركة مياه الشرب بفوة تحتاج إلى موظفيــن. قــارن بين وظيفته كمدرس ابتدائى والوظيفة الجديدة. وانتهى به الأمــر بأن عزم على العمل بالوظيفة الجديدة. وشد الرحال هو وزوجته إلى فــود. تاركــاً أباه وأمه وأخته ثريا فى مصر. وبدأ العمل الجديد. واستقر به المقــام فى حجرة داخل منزل مشترك بالدور الأرضى. واشترى جمال بعض الأثــاث المتواضــع وبعــض أوانــى لزوم الطهى. وسارت الحياة داخل هذه الحجرة تسابق الفصول الأربعة. حتى فاز فصل الشتاء بالإقامة داخلها طارحاً رطوبته فوق جوانبها ومسلطاً برودته على عظامهما. أما طابور المسابقات، فكان ينتظرهما فى اليوم عدة مرّات إلى بيت الراحة. ولم يكن لأشعة الشمس نصيب للاستضافة عندهما. فقد كانت كريمة لم ترض منازعة الظلام فى ليله ونهاره.

****

فى الصباح ، توجه شوقى إلى منزل اللواء ليطمئن على سلامة وصوله. دق الجــرس. فــتح الــباب. طفل صغير يرتدى شورتاً قصيراً وقميصاً رصاصياً مــربعات. أبيض البشرة. يعرفه شوقى جداً. ابن اللواء : ــــ إزيك يا أسطى شوقى ... ــــــ فين بابا يا مسعد ؟ ... ــــــ بابا جُوّه. اتفضل ... واوعى تنســى يــا أســطى شــوقى. تــبقى تيجى توصلنى بالعربية. انت من زمان ماوصــلتنيش المدرســة ، من يوم ما روحت انت وبابا اليمن. وأنا تعبت فى المواصــلات المدة اللى فاتت ... ــــــ حاضر يا أستاذ مسعد. انا ماأقدرش علــى زعلــك .. ــــــ خلاص اتفقنا؟ كلام رجالة ... ــــ كلام رجالة يا عم

مسعد... طرق مسعد حجرة مكتب والده. اللواء : ـــ مين؟ ... مسعد : ـــ الأسطى شوقى يا بابا ... ـــ خلليه يتفضل ... صافح شوقى اللواء بحرارة. وجلس قُبالته قائلاً : ـــ حمد لله على سلامتك يا فندم. جيت حضرتك إمتى؟ يشـــير اللـــواء إلـــى مسعد بالانصراف قائلاً : ـــ روح انت يا مسعد ، قول لماما تحضر الغدا. وعايزك تذاكر علشان أجيبلك الهدية إللى وعدتك بيها ... ـــــ حاضـــر يا بابا ... ثم نظر إلى شوقى مبتسماً : ـــ جيت فى طيارة الســـاعة ٢ بعـــد نص الليل ، ازاى حالك انت والأولاد؟ ـــــ الحمد لله ... قالهـــا فـــى اقتضاب. انشغل اللواء بالأوراق المنبسطة أمامه. ثم قال : ـــ قُدامـــك أســـبوع يـــا شـــوقى. هاتستريح فيه. وبعدين تيجى الوِحْدة. علشان نشـــوف ورانـــا إيـــه. وعايز أسمع عنك أخبار كويسة. ماشى يا شوقى؟ ... ـــــ ماشى يا فندم ، ربنا يعمل اللى فيه الخير. أستأذن بقى يا فندم عشان ورايـــا مشـــوار مهم ... ـــــ إزاى هاتمشى قبل الغدا؟ هاناكل لقمة الأول وبعديـــن روح المشوار المهم. وبمناسبة المشوار المهم. أنا عايزك تفضيلى نفســـك المغـــرب شـــوية علشان الأولاد عايزين يروحوا السيما انهارده فى العربـــية. تـــبقى تيجى يا شوقى توصلهم. ومفيش مانع تخش تتفرج معاهم. أحسن أنا مش فاضى. .. ـــــ ماشى يا فندم. حاضر. من عينيه الاتنين ... ووقـــف شوقى متأهباً للانصراف. لكن اللواء قام وأمسك به قائلاً : ـــ عيب يا شوقى أنا قلت إنك ها تتغدى معايا. يعنى ها تتغدى معايا ... ـــــ يا فندم اعفيـــنى ، مالـــيش نفـــس .... فى هذه الأثناء دخلت أم مسعد تحمل صينية الطعـــام. وضعتها. وصافحت شوقى قائلة ومرحبة : ـــ حمد لله على سلامة

وصــولك يا أبو حامد. وإزاى حامد وإخواته. وأم حامد ... ـــــ حامد سافر العـــراق ، ربنا يسهله ، واخواته وأمهم بيسلموا عليكم ... بعد تناول الغذاء انصرف شوقى ، واعداً اللواء بحضوره المغرب.

(١١)

اشترت حمدية حجرة النوم وحجرة الصالون. ودخلت فى صراع مع مدخرات شـــوقى لـــدى (بـــرعى) البقال. فقد وعدها أثناء إعطائها ثمن حجرة النوم وحجـــرة الصالون أنه سيترك مبلغاً عند البقال لجميع التزماتها المنزلية من طعـــام وشـــراب. نبّهها (برعى) البقال كثيراً ، بأن ما تُقدم عليه من تبذير وإسراف يتنافى مع الأصول والواجب. كانت تنهره بلسانها : ـــ انت مالك؟ احـــنا بنشـــحت مـــنك ؟! دى فلوسنا !! أما انت راجل بارد صحيح !! فيلوذ الـــرجل بالصمت ، ويضرب كفاً على كف. مستعيذاً بالله من الشيطان الرجيم. ممصمصـــاً بشـــفتيه. متمتماً فـــى همس : ـــ أنا مالى. تاخد اللى تاخده. ويسحب النوتة ويدون فيها ما يتم سحبه ... دخل شوقى فجأة. وجدها تلقى بـــبقايا طعـــام طازج فى صندوق القمامة. قال لها يا حمدية. اللى بتعمليه ده حـــرام. العيال أولى بيه ... لم ينل من جراء ذلك سُوى بداية احتدام جديد. لم يكـــن لديـــه وقت لزيارة صديقه (برعى) البقال. أحس بالتعب. اعتذر للواء لمرضـــه. أصبح عمله مقسّماً بين الوحدة ومنزل اللواء والورشة. كان برعى يود أن يرى شوقى ليخبره بصنيع زوجته التى كادت أن تفنى شقاء أيامه فى اليمـــن. لكـــن هيهات. هيهات. لقد كثرت مطالبها واندحرت تحويشة العمر. وتبعـــثرت فـــى الأفـــواه وصندوق القمامة. بل زادت الطين بلّة ، وبدأت فى

سحب متطلبات جديدة بدون رصيد. حتى قال لها (برعى) أنها مدينة بمائتى جنـــيه. ورأت حمدية بنظرتها المعوجة أن تصارح زوجها بالواقعة. ظناً منها أنهـــا لقّنته الدرس الأخير. الذى يُجبره على أن يكون مطواعاً لها. وصارحته بلكنة قاسية جافة : ـــ الفلوس اللى كنت شايلها عند (برعى) سحبنا بيها طلـــبات وخلْصـــت. وبرعى بلّغنى ان احنا علينا له مائتين جنيه كمان ... لم يـــتمالك شـــوقى. خـــارت قواه. أحس برأسه تنفجر. قال لها : ـــ إزاى يا حمدية؟! إزاى ده حصل ؟! انت أكيد اتجننتى!! قالت متجهمة : ـــ شوف يا راجـــل انت ، ماتقليش فى أدبك. إنت هاطلقنى ولا.لأ .... أزاحها عن طريقه. واستلقى على سريره. متقلباً يبحث عن حل ، وينقب عن مخرج لهذه الأزمة. لـــم يغمـــض لعينيه جفن. حتى إذا جاء الصباح. نهض على الفور. وارتدى ملابسه. وأسرع إلى (برعى) البقال يسأله : ـــ إيه اللى حصل يا برعى ؟ إمـــا إنت حرامى ؟! أو مراتى اتجننت؟! الكلام اللى أنا سمعته ده. مظبوط؟! قـــال برعى : ـــ شوف يا شوقى. أنا عازرك. لأنى لو مكانك. هاعمل كده. قالها بنبرة آسفة عما حدث ، وهو يسحب النوته. فتحها امام شوقى. حاصراً كل محتوياتها. أحس شوقى بأن الهوّه التى أصابت حياته ازدادت تساعاً. ولا يوجـــد لها علاج كالمرض المستعصى. العلاج الوحيد. هو الانفصال الفورى ووضْـــع قواعـــد أخـــرى. غير هذه القواعد التى نحرها السوس. هكذا كانت تهمـــس له دموعـــه. بـــرعى صـــديقه الحمـــيم الأمين. اتهمه بأنه حرامى. وتحويشـــة العمر أفنتها هذه الحرباء. بل كوّمت على ظهره عبئاً جديداً. لابد مـــن دفعـــه. احس برعى أن من واجبه الأخذ بيد صديقه. أسرع قائلاً : ـــ

شـــوف يـــا شوقى يا خويا. بالنسبة للمائتين جنيه أنا مش مستعجل عليهم. براحتك. دا احنا اخوات يا راجل. وإذا كنت عايز أى فلوس. تقول على طول ... اســـتأذن شـــوقى وصـــعد إلى الشقة. قلّب فى صندوق محتوياته. تناول قســـيمة الـــزواج وطـــار إلى المأذون الذى كان مشغولاً فى طلاق آخر. بعد انتهاء المأذون من مشاغله نظر إليه قائلاً : ـــ خير إنشاء الله ؟! زواج أم طلاق؟ ـــ طلاق. طلاق. يا سيدنا. قال المأذون : ـ يا حول الله !! ليه يا ابـــنى؟ انـــت فكّرت كويس؟ ـــ يا سيدنا خلصنى بقى. أيوه. أنا فكّرت من ثـــلاث ســـنوات ... قال المأذون من خلال عباءته الصوفية التى تستقر على منكبـــيه والـــتى ترقـــب عهـــوداً ومواثيق بين زيجات متعددة تمت ومازالت تـــتلاحم. قال بعد فحْص شوقى من وراء نظارته البيضاء : ـــ توكلنا على الله. هـــات القســـيمة وبطاقتك ... وتمت اجراءات الطلاق. بعد دفع الرسوم المقـــررة. عطـــف فى طريقه على صديقه (برعى). اخبره أنه طلّق زوجته ـــ الحمد لله يا راجل. أنا كنت عايز أقولك من زمان على كده. لكن خفت أحســـن تـــزعل مـــنى ... استأذن شوقى وانصرف إلى المنزل. طرق الباب. فتحـــت حمديـــة. اعترضـــت طـــريقه قائلة : ـــ مش هاتبقى بنى آدم بقى. وتطلقـــنى؟! قـــال شوقى بعد طعنها بنظرة النهاية : ـــ الورقة هاتجيلك فى البوســـتة. روحـــى وانـــت طـــالق بالـــتلاتة. وعلى العموم أنا هاكون راهب لـــ...... لم تنتظر حمدية إتمام الوصْف. وكررت سؤالاً سمعت هى إجابته : ـــ فين الورقة؟ ورقة الطلاق؟ ... أجاب شوقى وهو يقطر حزناً : ـــ ها تجيلك قريب جداً. أطلقت حمدية للسانها العنان. وتطايرت الزغاريد من فمها

تـــترجم انتصاراتها المتلاحقة. البنات ينتحبن فى الداخل. جُنّ جنون شوقى ، لكـــنه آثـــر التشـــبث بالصبر حتى النهاية. كان دائماً يبتعد عن التهور. دفع راحـــته يعـــوق بهـــا تموجـــات صوتها الهستيرية ، حتى لا يجتمع الخلْق. ويتســـاءلون. لمـــاذا هذه الزغاريد؟ ! من الذى تزوج؟ ! .... إلى آخر هذه الأســـئلة الـــتى ســـوف تكون بمثابة طعنات جديدة تطحنه عن آخره. أزاحت راحته. وجددت زغاريدها تكمل إعلانها عما انتابها من شجن لتحقيق وإحراز مـــا صمدت من أجله. وكأنها بذلك تنبه نساء الحارة لما حدث !! ربما لاتفاق بينها وبينهن!! وربما تريد أن تلقنهن درساً عنوانه (ترويض الرجل). وأن المرأة لابد وأن تخضع زوجها لرغبتها. فإن لم يرتدع بالحسنى. فهناك أبواب أخرىَ تستطيع المرأة أن تسلكها وتجتازها. وباتت الجارة الأرملة تزدرد لعاب الانتصـــار أسفل السلاملك. تكتم فرحتها بين يديها. تتحسس وجهها. وكأنها تخـــبره بأنهـــا أخـــذت بثأره. ودلفت إلى الداخل. جذبت ملاءتها من الدولاب وفرّت إلى الخارج. وجدت نفسها فى عرض الحارة. مترددة بأى باب تطرقه لإذاعـــة الخـــبر اليقيـــن. تنقلت من منزل إلى آخر كالبرْق الخاطف. خرجن النســـوة أمام أبواب منزلهن. يستطلعن ما يَجِدّ من أحداث. وما تطرق آذانهن مـــن زغـــاريد صـــاخبة. حتى تعالت الهمسات ،، وكثرت الإشارات وتراكمت الدهشـــات. وتوالـــدت التعليقات والاجتهادات والابتكارات والاستشفافات عما حدث. وما زال يحدث ... قال شوقى مخاطباً حمدية بلهجة آمرة : ـــــ خدى يـــا حمدية اللى تخديه. وامشى انت حُرّة. وطالق بالتلاتة ... ضحكت حمدية بسخرية قائلة : ـــــ ها. ها. ها. الشقة دى ليّه. ولعيالى انت فاهم يا شوقى

؟! يالّــه مع السلامة ... لم يُعلّق شوقى سوى بكلمات حزينة : ـــ ماشى يا حمديـــة. شـــوفى. لـــى. هدومى ... فتحت حمدية الدولاب ، ولملمت ملابسه بطـــريقة همجية. ثم فتحت الباب وقذفت بهم فى وجهه. حمل شوقى ملابسه بيـــن يديـــه. وسلك طريقه تجاه (القوشلاق). رتّب لنفسه ما يشبه السرير. وتأرجحـــت أيـــام مبيته ما بين القوشلاق. وسيارة اللواء. وحتى عمه عندما وصـــل إلى مسامعه النبأ عن طريق أولاد الحلال ، تركه وشأنه لاغتياظه لما حدث قائلاً : ـــ لو كان شوقى راجل ، ماكانش مراته عملت فيه كده ... لم يكّلــف شـــوقى نفسه وسعاً فى أن يذهب إلى عمه. كان يخشاه فى مواجهته بالحقـــيقة. ومـــا يجـــب أن يفعله. لأنه يعرف تماماً ، أنه لا يخشى فى الحق لومـــة لائـــم. لو كان عمه يفهمه. لذهب إليه. أو لزوجة عمه لغسْل ملابسه لضـــيق الوقـــت لديه. هكذا حدّث نفسه. أصبح حائراً. كيف يتصرف؟ . حدّث نفســـه : ـــــ الجميع الآن. ومن بينهم عمى واخوتى يشكّون فى رجولتى. وأنـــا أقوى من أى عناد. أبواب السجن تنادينى. وأنا أرفض استضافتها لى. صار يتذكر النهاية الآثمة كلما خارت قواه. مردداً بين الآونة والأخرى (إللى إيده فى النار ، مش زى إللى إيده برّه) وكيف يتسنى له أن يذهب إلى أخيها ليخـــبره. فلتذهـــب هـــى وأخوها إلى الجحيم. لو كان أبوها موجوداً لأخبره بالكارثة فى التو. لكنه مات. ترك أمره لله. كما ترك لحيته دون إكرام. أصبح أولاده الشغل الشاغل له. فكان يقتنص الفرصة تلو الأخرى. عندما تكون معه ســـيارة اللـــواء الميرى أو الخاصة. يميل على معرض الفواكه. يبتّاع ما لذ وطـــاب من أصناف ، ويواصل طريقه إلى الحارة. وقف امام الباب الرئيسى

للمـــنزل.حتى تقع عينيه على أحد أولاده. فيسلمهم جُعب الفاكهة. وكثيراً ما كـــان يقرأ المعوذتين ، حتى لا يقع تحت عين حمدية. لكن الجرّة لا تسلم فى كـــل مـــرّة. فيقع المحظور. وتنسكب البذاءات من النافذة. فكان يتجرعها فى صـــمت حـــباً فى رؤية أولاده. إلى أن قال له ابنه (راضى) ذات مرة : ـــ مش عايزينك يا بابا تيجى تانى !!. دُهش الأب من كلام ابنه قائلاً : ـــ ليه يـــا ابـــنى؟ فيه حاجة حصلت؟! ـــ زمايلى اللى بألعب معاهم بيقولوا. أمكم بتشـــتم أبوكـــم. واحنا بنتكسف. دقيقتئذ انفجر البركان الباقى داخله. وبرقت ومضات قلبه. أطلقت لخيوطها امتدادها المترامى. أوشكت على الانفصام. لاذ بالصـــمت معـــبراً عمّا حُشر داخله بإشارات صريعة. فقدت شبابها المفتول. وانصرف وهو يضمر شيئاً . فى هذه الآونة ، كان يتردد على (برعى) البقال يســـدد له بقـــية المبلغ المطلوب منه. وأثناء الحديث يتطرقان إلى أيام الصبا وحلاوتهـــا الـــتى ذابـــت وســـط الشقاوة. عرض برعى على (شوقى) فكرة الـــزواج. أقنعه بأنها ضرورة لابد منها. خاصة بعد معرفته بظروفه الأخيرة القاســـية. الـــتى اصبحت جرداء قحلاء كالدهناء. لكن بالرغم من قتامة أيامه وثلجيـــتها الـــتى فاضـــت حتى ارتشقت على أكوامها المتناثرة خوازيقاً من الصـــلب. إلا أنه كان متردداً فى زواجه من أخرى. كان فرع الطيبة الذى نبت داخلـــه فى دار عمه يداعبه أينما ذهب. ماذا يضير فى أن أتمهل وأتريث؟ ثم إن عائلـــتى بكامل دائرتها فى الصعيد. لا أحد فيها يفهمنى. أنا خائف من أى زيجـــة أخرى. خائف من أن تكون مثل حمدية. التى كانت ملاكاً فى البداية ثم ظهـــرت على حقيقتها الأفعوية. إنى أروم إلى الراحة والاستقرار. ولو تحقق

ذلـــك من غير زوجة ! لكن كيف؟! ماذا سيقول الأولاد ؟ لا بأس. الأولاد فى حـــالهم. لم يكلفوا خاطرهم أو وسعهم فى إقناع أمهم بأن ما تفعله من أمور مشـــينة ســـيهدم ويدهـــم البيت رأساً على عقب. وحدث ما توقع. يأتون من عملهـــم. ويـــأوون إلـــى فراشـــهم. حتى ولو أذّن الديك فى مالطة. والبنات مـــنطويات. لا شـــأن لهـــن فـــى إنقاذ الموقف. حازم أخوها مشغول بأسرته وعملـــه. عمى رجل طيب. لابد لخبر تمزق حياتى وصل إلية. فلماذا لم يحرك ســـاكناً هذا معناه أنى لست رجلاً. إذاً لابد من وضع الغطاء فوق الإناء. حتى لا يتشتت بخار الحياة الجديدة. لم يبق إلا القليل وتكتمل ... انشغل برعى مع الزبائـــن. تاركاً شوقى بعض الوقت. شارداً راكلاً لهواجسه العنان. منقباً عن أحســـن مـــا فيها. رغم قساوة ما ينتخبه. وعندما انصرفت الزبائن ، جاوره بـــرعى بعد أن حدجه بنظرة رثاء. أعقبتها تنهيدة ارتياح من العناء ثم قال : ـــــ قلت إيه يا شوقى فى الجواز؟ قال شوقى بعد استثمار هواجسه فى بنك عقلـــه المـــتخم بالتضاريس الكونية الوعرة. والتى احتلت أماكنها. ورسخت مـــتحدية خطواتـــه القادمة : ـــــ شوف يا برعى . أنا ما بفكرش فى الجواز دلوقـــتى. يمكـــن بعد كده ... قاطعه برعى واجماً : ـــــ إيه يعنى يمكن بعد كده؟ انت مابصيتش فى المراية ولا إيه؟! قال شوقى بنبرة حزينة ، متحسساً لحيته التى طالت دون أن يدرى ، وبعد إلقائه نظرة على ملابسه الممزقة من الـــزوايا والأركان والتى غطاها الشحم والتراب ... أنا تعبان أوى يا برعى يا خويـــا ... ـــــ إخواتـــك علموا بالموضوع ، ولا لسه ؟ ... ـــــ من لحظة مازعلـــتهم فـــى بيتى . ماشوفتهومش تانى .. ـــــ وإنت كنت زعلتهم ليه؟

ســـرد علـــيه شـــوقى مـــا حدث تفصيلاً . أطرق برعى قليلاً . ثم قال بنبرة الصـــديق الـــذى يُقـــدّر الصداقة ويغلفها بالحب ويحفظها بالخير : ـــــ على العمـــوم يـــا شـــوقى فكر فى الجواز من واحدة تانية . وإوعى تتردد . وده أحســـن حل ليك. قام برعى يلبى مطالب الزبائن الذين توافدوا على الحانوت. واستأذن شوقى وانصرف

لم يتحمل جمال إبن عم شوقى الحجرة اليتيمة . أخذ يبحث عن مكان أوسع . حـتى عـثر على شقة بالدور الثانى مكونة من حجرة وصالة . أهم ما فيها دورة المـياه. فهـى مستقلة ، لا طوابير فيها ولا غيره . حدثته نفسه بهذه المـيزة الفـريدة . انشرح صدره لها فقد كان يعانى الأمرين فى البلوغ إلى المراد . فى أغلب الأحيان كان لا يقضى حاجته من كثرة الطَرْق على الباب . وفـى أحـيان أخـرى عـندما يأتى ترتيبه فى الدخول يتراجع وينسحب من الطـابور لضـياع الرغبة نظراً لطول الانتظار . ومن يومها وهو لا يكل فى البحث عن مكان يجد فيه راحته هو وزوجته حتى عثر على الشقة الجديدة . بـرغم أنه كان يتمنى شقة أوسع منها. واضعاً فى الاعتبار زيارة الأقارب له من الصعيد . أو زيارة أولاد عمه له ، وأيضاً زيارة أبيه وأمه وأخته. وأثناء جلوسـه يفكر فى شقة أوسع . جاءه خطاب من أبيه . قرأه . عرف أن أباه وأمـه سـيتركون مصر بعد أسبوع . وسيستقرون عنده فى فوة . بدأ رحلة جديـدة فـى البحث عن شقة أوسع ، وانتهى به المطاف فى كتابة عقد لشقة ثـلاث حجرات وصالة ودورة مياه مستقلة بالدور الأرضى فى عمارة سكنية

تتــبع مجلس المدينة. ولأول مرة تنفس الصعداء فى واحته الجديدة . استقبل أباه وأمه وأخته ثريا . وعاش الجميع فى وئام.

فــى يوم من الأيام . أثناء احتساء شوقى شاى الصباح مع صديقه (المصرى حســين) [illegible] شنبة . عرض عليه صديقه الزواج من فتاة تعيش وسط أسرة طيبة . لها ظروف خاصة . قال : ــ البنت أصغر إخوتها الصبيان الأربعة. عمــرها ٢٠ ســنه .. تساءل شوقى : ـــ وإيه هيه الظروف الخاصة؟ ـــ فــيه مشــاكل بيــن أبيها وأمها : أبوها عدا ال ٥٠ سنة وبيمشى بالعافية . تعبان يعنى . وأمها صغيرة وشايفة نفسها شوية. أصلها جميلة . لما بتمشى فى الشارع بتلوح أجدعها رقبة . عينين زرق وشعر أصفر. باختصار جوزها بيغــير عليها. وحلف عليها كتير عشان ماتروحشى السوق ، وولادها يسدوا مكانها . لكن ولاده الأربعة شغّالين فى الخرسانة طول النهار . وبنته الوحيدة (كــريمة) كانــت ساعات بتجيب الطلبات من السوق بدل المشاكل إلى أبوها بيعملها وهيّه كمان اللى بتخدمهم كلهم. وكبرت المشاكل بينهم لدرجة انه فى مــرّة رفــع علــيها السكينة ، وكان هيدبحها وهيّه نايمة . ولولا انها فتحت عينــيها فــى الوقــت المناسب لإحساسها بالعطش. لما بتروح السوق ، كان بيراقــبها مــن الشــباك اللى جمب سرير نومه . كان بيشوف العيون وهيّه بــتاكلها . أمــا هــوه . الغيرة اللى كانت بتاكله. وكان ده سبب المشاكل ... الوليّه فكرت فى بنتها الوحيدة . حبت تجوزها الأول. عشان هيّه تنفصل عن جوزهــا بعــد كــده. عايزة تسعد بنتها (كريمة) بأى شكل. أما الصبيان. ما يــتخافش علــيهم .... أنصــت شوقى لزميله مستكيناً بهمس الأمل . مهذباً

برغبة التفاؤل. وإن كان هذا الإنصات مشوباً بالشرود بعض الشيء في عالم حـياته الممـزقة. لكنه أفاق بسرعة من سكْرته المخدرة بين حياة منصرمة وحياة قادمة. متسائلاً : ـــ وكريمة في المدرسة ؟ قال المصري : ـــ لا . كـريمة طلعـت من المدرسة من سنة تالتة إعدادي. وأنا متأكد يا شوقي. لو رحـت واتقدمـت لها . ها توافق. وأمها ها توافق. ... ـــ إزاي يا مصري بـس؟! أمها ها توافق إزاي ؟! لما تعرف اني متجوز ومعايا سبع عيال؟! . ـــــ يـا عـم هو انت دلوقتي متجوز؟ انت مطلق بس عندك سبع عيال. ويُستحسـن إنـك ماتجيبش سيرة ، ان انت متجوز من أساسه. وما تجيبش سيرة ال ٧عيال .. قال شوقي مستفسراً مندهشاً : ـــ أُمّال إيه يا مصري ؟ أنا ما أحبش أكذب. وبعدين. هيّه كده هاتعرف. وكده هاتعرف . وأنا يا عم مـش نـاقص مشاكل. كفاية اللي أنا فيه. قال المصري بنبرة تغلفها الثقة : ـــ خلاص يا عم. اتوكل على الله. ولو حبيت آجي معاك . هاجي. وإنشاء الله هاتوافق .. ـــ مين هيّه اللي هاتوافق؟ ـــ أمها ... ـــ ومعقول البنـت هـاتوافق ؟! ـــ بلاش التشاؤم ده من أولها. موضوع البنت أمها هيّه المسئولة عنه. إنت أهم حاجة بتوصلّها الراس الكبيرة.اللي هيّه أمها ... استفسر شوقي عن مكان إقامتهم. قال المصري : ـــ في رمسيس .. واتفق شـوقي مـع صديقه المصري على المقابلة بعد صلاة العشاء مباشرة لإنهاء إجـراءات خطـبة الفتاة. وبعد انقضاء يوم العمل. انصرف كل منهما . شق شـوقي طـريقه إلى مسجد مجاور. اتجه ناحية صنابير المياه. غسل وجهه

ويديـــه وصـــلى. ألقـــى نظرة عابرة فوق ملابسه. وسرعان ما أعطى نفسه القرار.

لجـــأ إلـــى صديقه (برعى) على أن يقرضه بذلته ليلة واحدة. حتى يتسنى له مواجهـــة هذا الظرف الطارىء. قابله برعى. مرحباً وبارك له هذه الخطوة. داعـــياً له بالتوفـــيق. وســـرعة إنجاز المهمة. ارتدى شوقى بدلة بُنية اللون مُحـــلاة بخطـــوط طولية. أشرف عليه برعى فى استكمال زينته. وقف شوقى أمـــام المرآة. يطمئن على نفسه. رابطة العنق البنية المزينة بنقوش عرضية حول ياقة القميص الأبيض. أضافت عليه مساحة من الأناقة. صفصف شعره الناعم. تداعبه ابتسامة خفية بين الحين والحين. بعد الاطمئنان على نفسه . اســـتدار للانصـــراف. رأى صديقه برعى وهو يرتدى معطفه الصوفى. ناظراً إليه ببهجة واستشراق. بادر شوقى متسائلاً : ـــــ إنت وراك مشوار ولا إيه يـــا برعى؟ أنا آسف إذا كنت عطلتك! .. قال برعى بنبرة الصديق الأخ : ـــــ تروح لوحدك. هو أنا هاسيبك تروح لوحدك .. ثم توجه ناحية باب الحجرة . منادياً متعجلاً : ـــــ ياله يا أم محمد هاتى العشا ، علشان مستعجلين..

تـــبادلا الحديـــث. سأله برعى عن ظروف هذه المفاجأة السارة. ومتى كانت بدايـــتها؟ وكيف كان القرار؟ .. اقتعد شوقى مواجهته متنهداً بارتياح قائلاً : ـــــ شوف يا برعى يا خويا. أصل الحكاية ....

سرد له كل التفاصيل. دخلت أم محمد مرحبة بشوقى ، تحمل صينية مرصعة فوقهـــا صـــحاف يـــرقد فوقها ديك رومى وأرز ومرقة وبامية يعتليها سحب شـــهية. يـــتراقص على رائحتها جهازه الهضمى ، والذى استيقظ من غفوته

بعــد إغماءة أجبرته الظروف عليها. ازدرد ريقه. وطلب منه برعى أن يشمر ســـاعديه. لم يتردد شوقى . كيف لا إنه لم يذق منذ فترة كبيرة ، طعاماً مثل هــذا الذى يضرع أمامه فى خشوع وهناء ... وبعد الانتهاء من تناول طعام العشـــاء واحتســـاء الشـــاى. اصــطحب شـــوقى صـــديقه برعى تجاه منزل (المصرى) واستقل ثلاثتهم تاكسى إلى رمسيس ، حيث تقطن بذرة حياة ثانية ســـوف يحيـــيها شـــوقى. غمرته بواعث قلق. لا يدرى مصدرها استلهم قوة إرادته. لا بأس من فكرة زواجه هذه. الظروف حتمت ذلك لكن آن للرياح أن تزمجـــر ، وتجرف ما يقابلها. ولقد كُتب له البقاء والنجاة عندما وطأت قدماه أرض مصـــر بعــد حربه فى اليمن. كان من الإمكان أن يكون قبره فى الممر المائى الذى شقه الروس بالقرب من ميناء الحديدة أثناء عبور السفينة التى كانـــت تقلـــه هـــو والجـــنود وكان وقتها قابعاً فوق متن السفينة يمرح هو وزمـــلاؤه فـــى أحاديث لا تنتهى ذاب معظمها فى الظلام. كاد ينزلق على إثر رجّـــة عنـــيفة نتيجة ارتطام السفينة بإحدى الصخور الصلبة لولا ستر الله .. تذكّـــر عـــندما صدر له الأمر بالهبوط فوراً من الطائرة ، عندما كانت تُحلق فـــوق ارتفاع هائل من جبال اليمن الشاهقة الارتفاع. وقتها تردد. لولا قائده الـــذى رفعه بقوة خارج الطائرة مكبلاً بحبال المظلة. أجبره على تنفيذ الأمر فاستنشق عبير القوة من الفضاء حتى لا يرتطم بالجبل وتكون نهايته .. تذكر عندما صعدت بهم السيارة الجيب فوق جبل الموت شاهد السحب وهى تتخبط بحوافـــيه وســـفحه فتحيلها إلى فتات أبخرة تحجب عنهم رؤية الطريق حينئذ تمـــتم بالشـــهادة وفقـــد الأمـــل فى العودة إلى الأرض. عبر الأزمة ....

وانطلقـــت بهـــم السيارة مخترقة ضواحى المدينة. حتى ظهر رمسيس واقفاً شـــامخاً وســـط الميدان داخل قالبه الحجرى ، وكأنه فى استقباله. مشيراً هنا آخـــر المطـــاف وفـــى شـــارع جانـــبى توقف التاكسى ونزل الثلاثة تقدمهم (المصرى حسين) نحو بيت (الزوجة الثانية).

(١٣)

خــرج حــامد من عمله. توجه ناحية مسكنه. وجد خطاباً فى انتظاره. تلهف لمعــرفة أخــبار أســرته. خاصة الموقف المتأزم بين أبيه وأمه . قرأ عليه أصــدقاؤه الخطاب. ليس فيه جديد سوى خبر مؤلم. أمه ترقد فى المستشفى. تعــانى من الفشل الكلوى . حزن أشد الحزن. ودّ لحظتئذ ان يكون بجوارها. دعــا لهــا بالشفاء . انتظر حتى الصباح رتّب أموره. حجز فى الطائرة. أخذ مكانــه بين مقاعدها نظر بجواره وجد طيف شربات يداعبه. وما كاد يعاتبها علــى عــدم إرســال خطابات له حتى تذكر أنها لا تقرأ ولا تكتب مثله. آثر الصمت يتأمل فى جمالها الفتّان ويستعذب لمسات الحنان ودّ لو قفز به الزمن إلــى دارها . تململ فى جلسته. يدعو الله الفرج ، والبعد عن أى كرب. أحس بدوّامــة كــادت أن تطيح برأسه. فظروفه المالية كانت تسير على خير وجه. لــولا المســاعدة المالية التى طلبها شقيقه (محمد) لشراء الشبكة لفاطمة. وليسد بها أفواج الوافدين لشراء قلبها. لم يستطع التمتع بطيف شربات. لان انشــغاله بأمــه حال دون ذلك. بسط الخطاب أمامه ينظر فيه مجاهداً ومكابداً فى فك الرموز. خروجه بعد أربع سنوات من التعليم الابتدائى أعطى له الحق فى الاعتقاد انه يستطيع قراءة الخطاب. لكنه شعر بالخزى وأنه بذلك يضحك

علـــى نفســـه. إلى أن ينتهى من السطر الأول تكون الطائرة فى طريقها إلى العـــودة. أراد أن يعطـــى مـــن بجواره الخطاب ليقرأه عليه عدة مرّات لعدم استيعابه لما جاء بفحواه عندما اخترق أذنه مرض أمه وحجزها بالمستشفى. أحـــس بشـــوق لمعرفة خبر كل واحد على انفراد. يا بختك يا نجاة فلحتى فى المدرســة وبــتعرفى تقرى وتكتبى. هكذا قال لنفسه عندما أحس بطقطقة فى رأســـه مـــن جراء ندمه على فشله وخروجه من المدرسة. قال لنفسه عندما لمـــح طيف شربات يشير إليه من الفضاء محاولاً الدخول إلى الطائرة وكأنها علمـــت بما يدور فى ذهنه : ـــــ كل ولادنا يا شربات هانعلمهم . ولا واحد هايفلت من المدرسة. جاءته ضحكتها المميزة عن بقية بنات العالم. تشد من أزره. تحفـــزه علـــى الصبـــر والصـــمود وتبعث فى قلبه . أضواء المستقبل الخضراء. انشرح صدره بهذه الغبطة ونام على إثرها.

* * * * * * * * * * * * * * * * * *

العمـــارات مصـــطفة علـــى الجانبين. سيارات متناثرة رابضة بطول الشارع يتساقط عليها ضوء مصابيح الأعمدة فتضيف إلى المساحة الضوئية مساحات أخـــرى. هـــاهو المـــنزل . طرق المصرى حسين الباب . بعد قليل. فتحت أم الفـــتاة . ابتسمت له مرحبة. صافحته بحرارة. فهو صديق لأولادها الصبيان. وكثـــيراً مـــا تـــردد على منزلهم. قال المصرى : ـــــ معايا ضيوف ... ثم همـــس بجوار أذنها : ـــــ فيهم عريس. عايز يطلب إيد بنتك كريمة. وكأنه يعلم تماماً ، وقْع هذا الخبر عليها. فتشدقت المرأة بابتسامة فضحت سريرتها ، ورغبتها الملحة فيما رنا إلى مسامعها من خبر. وودّت أن ينتهى كل شىء

بخصـــوص زواج ابنتها اليوم قبل الغد. بل من التو المرتبط والمنعقد بلسان الحـــال قـــبل بدايـــة ساعة أخرى. لكن مراسيم وطقوس الروتين تحتم عليها ضـــرورة التمســـك بالصبر بعض الشيء. حتى تنكص عن القيل والقال. ندّت على قسمات محياها ملامح الغريق الذى قُذف له بطوق النجاة لكنها سرعان ما ضغطت على مشاعرها وبهجتها التى تملكت من بشرتها ، فأكسبتها حمرة ورديـــة ، أضـــفت عليها جمالاً وسحراً. وبدت وكأنها بنت العشرين. تقدمت خطـــوة خارج بسطة الباب قائلة : ـــــ اتفضلوا يا جماعة. اتفضلوا البيت بيتكم. دخل الثلاثة إلى حجرة الضيوف . أخذ كل واحد منهم مكانه. وواصلت المـــرأة : ـــــ أنستم يا جماعة ... كانت تقصد بذلك الترحيب وبأنه مفتاح حديـــث السعادة. وإشارة للإجهاز فوق لُبْ الموضوع دون مقدمات ... سألها المصـــرى عن أصحابه (يقصد بذلك أولادها) قالت : ـــــ لسه ماجوش من بَره. وخيَم الصمت على المكان. ارتفعت فيه الرؤوس إلى الجدران تمسح ما علَق عليه من صور للعائلة. اصطدمت عين شوقى بالفتاة. هى الوحيدة التى تشـــارك الجـــدران موكبها. كان ذلك استنباطاً من شوقى لكنه أراد التأكيد ، فوخـــذ المصـــرى هامســـاً إياه : ـــــ هيه دى العروسة؟ ... هزّ المصرى رأســـه بالإيجـــاب. ثم تمتم : ـــــ إيه رأيك؟ ابتسم شوقى معلناً القبول .. توجـــه المصـــرى للمـــرأة سائلاً : ـــــ أمال عروستنا فين ؟ ... اطمأن قلب المرأة بسبب الزيارة المباغته. رغم تنبيه المصرى لها من البداية عند الباب مـــنوهاً عـــن سبب الزيارة. لكنها بادرت بالإجابة : ـــــ كريمة نامت أصلها متعودة تنام بدرى. عن إذنكم خمس دقائق ... نهضت المرأة إلى غرفة النوم

توقــظ كــريمة. لــتجهز الشاى وتقدمه إلى عريسها المنتظر : ـــ قومى يا كــريمة. قومى يا حبيبتى. العريس مستنيكى تقلّبت كريمة فى فراشها . وهى تتثائــب متــثاقلة : ــــــ أيوه يا ماما حاضر. أنا قايمة أهوه ، بس شوية صــغيرين، بــس .... وتركتها أمها ، وانصرفت تُجالس الضيوف ... سألها المصــرى عن أبو كريمة. قالت مكفهرة ، وكأنها لا تبغى أن تسمع اسمه بعد الــيوم : ـــ فى القهوة. كل يوم فى القهوة. فاطمأن المصرى لعدم وجوده. حتى لا يشيع فى الجو قتامه وكآبة بصوته الأجش. وتنتهى الزيارة على خير مــع علمــه ان قرار المرأة يكفى دون الرجوع إلى رب البيت. تشجع قائلاً : ــــ شــوفى يــا ست أم كريمة : ـــ الأسطى شوقى زى ما انتى شايفه (يشــير إلــيه) شــاب كــامل الرجولة وهو طيب ومن عيلة أصيلة ، وعايز يصــاهركم. إيه رأيك؟ ثم أكمل : ـــ والأسطى شوقى يا ست أم كريمة أعز أصــحابى وأنا لو لفيت الدنيا بحالها مش هالاقى زيه. فى أخلاقه وأدبه. بس الدنــيا بقى ملطشة معاه حبتين ... انشرحت المرأة لهذه الأوسمة والنياشين الــتى انطبعــت على صدر ومنكبى زوج ابنتها الساكن كتمثال من الجرانيت. فكانت تومىء برأسها بين الحين والحين. تُعلن صدْق ما تسمع ورمت بطرف عينــيها فوق شوقى تتفحصه. أحس شوقى بأنها تستحثه على الكلام. اعتدل فــى جلســته ، وكأنه تلميذ فى الفصل يتهيأ للإجابة على سؤال صعب. منقباً عــن طرف خيط البداية. عثر عليه. قبض عليه بلسانه قائلاً : ـــ الصراحة يــا ست أم كريمة مفيش أحسن منها. أنا أصلاً من الصعيد. ومن زمان وأنا صــغير كنت عايش فى مصر. هنا يعنى مع عمى. ودلوقتى أنا شغّال سوّاق

وكنت متجوز لكن طلّقتها. ومعايا منها سبع ولاد. عايشين معاها دلوقتى. إذا كـــان لـــيكى رغـــبة تجوزينى بنتك ، فده هاعتبره تكريم ليّه وشرف لوقوفك جمـــبى فى محنتى .... استفسرت المراة عن سبب الطلاق. بادر برعى مجيباً : ـــــ يـــا ســـت أم كـــريمة شوقى ده شاف الغلب ألوان. ياما صبر وياما استحملها لكن مفيش فايدة بيعته كل اللى أدامه واللى وراه. لدرجة انه خاف علـــى نفســـه منها وفضّل الانفصال ... ساد الصمت المكان. كأنهم طلبه فى الـــثانوية العامـــة ينتظرون إعلان النتيجة. المرأة تصول وتجول داخلها. هل توافق؟ أم لا؟ إنها حائرة . لاحظ شوقى انحسار عينيها بين المد الجزر. خفق قلـــبه كـــاد اليأس يطوقه رغم تردده داخلياً من فكرة الزواج لكن سرعان ما تُـــرجم الـــتردد إلـــى موافقة. ذات لحن عقيم. ابتهج على اثره ثلاثتهم. قالت المـــرأة بنـــبرة زعيم ينبه رجاله على طريقة جهنمية للإقدام نحو تنفيذ خطة إجرامـــية : ـــــ شوفوا يا جماعة. خد بالك يا شوقى. البنت مش لازم تعرف انك كنت متجوز. فاهم. هوه ده شرطى الوحيد .... قال شوقى : ـــــ يا ست أم كـــريمة . إزاى بـــس ماتعرفش إنى متجوز. هيّه كده كده هاتعرف. وبكرة طالقـــتى هاتعـــرف. اللـــى هيّه أم العيال. وهاتيجى تعملى مشاكل. وأنا مش نـــاقص مشـــاكل فوق مشاكلى . وعلى العموم أنا بأنبهك بأن أنا مش ضامن نفســـى. هاســـعدها ولا. لا . ولازم تعـــرفى إن أنا مش بتاع سيما .... كانت تنبـــيهات شـــوقى هـــذه بمثابة أعمدة تحمل مصابيح وإشارات لتباشير حياة جديـــدة. كان يعتقد أنه بذلك يمزق حجاب التردد الذى انتاب المرأة منذ قليل. وبعدها كان القرار. الغاية والوضوح. انشرح لهما قلب المرأة. كانت الموافقة

تــزداد عمقاً وسكينة. اشتبك داخله صراع مع الماضى والحاضر والمستقبل. ولــولا مــؤازرة صديقه له فى هذه المحنة. لما أقدم على هذه الخطوة. سرد شــوقى كــل كبيرة وصغيرة ، طارحاً إياها أمام المرأة ، فقبلته زوجاً لابنتها دون قــيد أو شــرط. دخلــت الفــتاة تحمل صينية الشاى تتحول عينيها بين الثلاثة. تسأل نفسها : ـــ يا ترى مين فيهم العريس؟ ..... كأن أمها سمعت تساؤلها . فقالت : مبروك يا كريمة. عريسك أهوه. أشارت إلى شوقى. وهَمَّ واقفــاً مصافحاً إياها. انتفضت فرائس عواطفه الحبيسة من مرقدها منذ فترة خلت. يا الهى سبحانك. صورة جمالية بديعة. ظل يلاحقها بحسه وعينيه حتى انســحبت الفــتاة إلــى الداخــل فــى حياء ملحوظ. تورّد على أثرها خديها المتســربلين بالحمرة. انفجر بركان شوقى المتقظظ الولهان .... نظر برعى فــى ســاعته وقال قلقاً متنهداً : ـــ هيه طيب نستأذن احنا بقى يا ست أم كــريمة ..... ونهــض المصــرى وقــام شوقى لاهثاً بنظراته وراء جدران الحجــرة. لاحــظ المصرى ذلك. طرق على كتفه برفق قائلاً : ـــ شوقى ما فــيش حاجة عايز تقولها قبل ما تمشى ؟ قال شوقى : ـــ شوفى يا ست أم كــريمة الشــبكة والمهــر إنشاء الله كمان أسبوع بالكتير وانصرف الجميع ....

لــم يرد شوقى من أين يأتى بالمهر والشبكة. لم يكتف بقسوة القرار بل حدّد لنفسه مدة قصيرة. لا تكفله بالحصول على هذا المبلغ. أخيراً اهتدى إلى حل ، هــو أن يضــاعف مــن عمله فى الورشة. حتى يتسنى له تنفيذ وعده مع نفســه ، واتفاقيــته التى أبرمها دون سابق إنذار. وإذا أراد أن يكمل المبلغ

فســوف يستعين بصديقه برعى. وعندما استعد رأى أن يستقل بنفسه. الليلة الســابقة لتنفـيذ الوعد. اتخذ من السيارة الميرى مبيتاً ومن مقعدها سريراً. آثـر أن يـنزوى بنفسه بعيداً عن الأعين. يناوش نفسه ويحاورها. لابد أن يفكـر ملياً فى حياته القادمة. أحب ألا يعكر صفو تدبيره. جمع بدايات حبائل حـيرته المنصـهرة فـى بؤرة رزينة هادئة. قام وتوضأ. لقد قرر أن يصلى صلاة الاستخارة. أراد أن تنكشف الغمّة ويطفو الاستقرار على مرفأ الحقيقة. نـام طالقاً عيون الواقع تتشاور من أجل حياة أفضل. بزغ قرص الشمس قبل المـيعاد. اضـطرب داخـل السيارة. النتيجة لم تظهر بعد. يا لها من كارثة. نهض فزعاً. يفرك عينيه تجاه أشعة الشمس التى تتحداه. لم يعد يتحامل أمام هـذا الإضغام . طارده الفزع والتمرد. دفن فى نفسه قراراً. فى المساء عرج علـى حانوت (برعى) تتقدمه خطواته الحثيثة حتى إذا لاقاه الآخر استقبله بعبارات الترحيب داعياً له بالجلوس. حدّق برعى فى عيني شوقى متسائلاً : ـــ مـا لك يا شوقى . شايفك متغير. هوّه حصل حاجة؟ قال شوقى بنبرة متشـربة بالتراجع عن قراره بصوت خفيض حزين : ـــ شوف يا برعى أنا مـش عايز أتجوز .... لم يمهله برعى ليستكمل كلامه. بل قال مقاطعاً : ـــ إيـه الكـلام ده يـا شوقى ؟ إحنا عيال ولا إيه؟ إنت خلاص معادك النهاردة عشـان تقـدم المهر والشبكة. وبعدين ظروفك بتحتم عليك إنك لازم تتجوز. وده مش غلط ، عشان يخليك متردد بالشكل ده .... رفع شوقى رأسه بعد أن كـان مطـرقاً ثـم قال : ـــ يا برعى يا خويا. مش حكاية غلط. الحكاية ان عـندى عيال. ولو اتجوزت تانى وعلمت الأولانية هايبقى فى مشاكل أكتر من

الأول. انـــا كنت عايز أخلّص ضميرى. وأقول لكريمة بنفسى وأنا كنت عارف إنهـــا لابـــد هاتـــرفض وهو ده الموضوع اللى تاعبنى. أمها قالت : ـــ أنا موافقـــة بجوازك منها ، بشرط إنك تخبى عنها إنك كنت متجوز وعندك ولاد. أمهـــا يـــا برعى بالطريقة دى عايزة تخلص من بنتها علشان تستريح هيّه. وتتعبـــنى أنا بعدين. هوه ده يا برعى اللى مخلينى متردد ... قال برعى بعد ان اتضـــحت له رؤى أخـــاديد الحـــيرة القاطنة فى الفؤاد المجروح : ـــ يا شـــوقى. خلى توكلك على الله وما تفكرش فى أى شىء إلا فى أوانه. وبعدين يـــا سيدى زى ما إنت بتقول. كريمة هاتعرف ، يعنى هاتعرف. بس الكلام ده بعديـــن. يكون عدت فترة كبيرة على جوازكم. والفترة دى كفيلة بأنها تنسيها أى شـــىء . وإذا كانت هاتزعل شوية. وبعدين هاتستسلم للأمر الواقع. وهيّه مـــش معقولة هاتهدم حياتها بإيديها ... ـــــ والله يا برعى يا خويا معقول كل حاجة انهاردة .. ـــــ بلاش تشاؤم أمَال. يا سيدى احتمال ربنا يطرحلك فـــيها البركة وتكون ملاك .... تمتم شوقى : ـــ ما هى الأولانية كانت ملاك وانقلبـــت شيطان ... ـــــ هيه. بتقول حاجة يا شوقى ... ـــــ لا مفيش حاجة ...

خـــيم على المكان صمت لم يتعد الدقيقة ثم واصل برعى : ـــــ مفيش غير كده يا شوقى هوه ده اللى لازم تعمله. هبّ شوقى واقفاً. كأنما لدغته عقربة. ومد يده مصافحاً برعى قائلاً بلسان مبلل بدموع اندثار الرغبة الدفينة : ـــ ســـلام عليكم. ربنا يسهل انشاء الله. وانصرف شوقى متعثراً فى شباك حياته الماضـــية ومخترقاً كوة حياته المقبلة. حدّث نفسه قائلاً : ـــ تُرى ما الذى

أفعله الآن ؟ ربِّ ألهمنى حُسْن التصرف. أنا خائف من هذه الزيجة. أمْ ترغب فـــى تزويج ابنتها حتى تنصرف إلى حياة أخرى على حسابى. وسوف يكون لذلـــك أثره الوخيم على مستقبلى الذى يبدو عقيماً من أوله ... أحسَ أن فى جـــيْده حـــبْلاً مـــن مسد. تحسس رقبته يزيح عنها الجمر. اغرورقت عيناه بـــالدمع. ذاب فى هنّات مشلولة تحت قبة خوره الذى يزداد عمقاً فوق عمق. وفـــى الســـيارة المـــيرى أغمض جفنيه مستسلماً للكوابيس المتباينة. الفزع والرعـــب علـــى عاتقه جبال من الثلج. وعلى كاهله براكين وزلازل مجهولة الزمان. يزحف على بطنه عارياً ، فتتجمد دمْاؤهْ. يصرخ مستغيثاً بأحد المارة ، فـــلا يجد انيساً سوى صدى تأوهاته المكتومة فى أجوائه التى انشقت فيها قـــنوات الحزن. وتفجرت داخلها شرايين الحياة. وتنجح المحاولات . ينتفض واقفاً ينشب أظافره وأصابعه فى كتل الثلج الشاهقة وكلما صعد مسافة. هوى علـــى جذور رأسه يتلوى من شدة ما انتابه من ألم فى عظامه. وما لبث أن يفـــيق. حـــتى أبْصر رهطاً من الشياطين فى عيونهم خيوط من النار. وعلى أجسادهم السوداء العارية. زواحف مختلفة الأحجام والأنواع. لم يدر بعد ذلك بنفســـه. إلا وهـــو فـــى قلـــب نهر. ماؤه اللهيب. وساحله نصال مسنونة ، وأمواجـــه أشـــواك قابضـــة للأرواح. لم ينقذه من شبح الموت سوى صرْخة دوت فى أنحاء عالمه وخيمته الدامية. أمسك بتلابيب ذيلها. مسح على عينيه ليـــتأكد أنه حى يُرزق. نهض على الفور ليُطمئن نفسه بأنه سبّاح ماهر. عبر مانشـــتات الجلـــيد واللظـــى. كثيراً ما كانت تساوره فكرة الانتحار. لكنه كان يقذفهـــا علـــى الفـــوْر ، بقنابل صبْره ، فيحيلها إلى رماد. يتطاير فى الهواء

ويتلاشـــى. وكـــأن شيئاً لم يكن. كوابيس الليل أرحم من شبح الموت. كم من مـــرّة يســـأله اللـــواء ، وهـــو أمام عجلة القيادة. مالك يا شوقى. إنت مش عاجبنى زى الأول. فيه حاجة مزعلاك؟! ... كان يرد بابتسامة باهتة مشوبة بـــالكدْر : ـــــ لا يافندم . مفيش حاجة. أنا كويس. ومفيش حاجة خالص. الولد ابنى . بس. تعبان شوية ... كان يتنصّل دائماً من أسئلة واستفهامات أصـــحابه فـــى الورشة. والوحدة. كفاه ما حدث فى الحارة. حكايته الآن على كـــل لســـان فـــى الحارة بل فى الشارع طوله. وليس من المستبعد أن تكون حكايـــته تشعبت فى الأحياء والمناطق المجاورة. وربما فى الأزقة المتفرعة أيضـــاً. وفـــى الورشـــة ... لـــم يكن غير (المصرى) فقط هو الذى يعرف حكايـــته. وكذلـــك صـــديقه (برعى) البقال. وربما يعرف اللواء القليل من أخباره. لكنه آثر ألا يعرف أكثر من ذلك. حتى لا تستشرى فى أرض الوحدة. كتبت له النجاة عدة مرّات. مرّة عندما كاد يصطدم بحانوت على حافة النهر. ومـــرّة بسيارة نقل كبيرة. ومرة أخرى بأحد المارة. كان ذلك عندما أوشكت حـــبال صـــبْره أن تـــنقطع. وكاد الهم والغم يطيحان به إلى العالم الآخر. فى المساء هرع إلى رمسيس بمفرده. فى داخله قراره اللانهائى.

ارتمـــى حامد فى أحضان أمه وهى على سرير المرض فى المستشفى. داعياً لهـــا بالشـــفاء. سأل أخاه محمد عن تقرير الأطباء. عرف انها فى حاجة إلى كلْــية. لكـــى تعـــيد إليها حياتها من جديد. أسرع لمقابلة الأطباء. بعد إجراء الـــبحوث الطبـــية عليه. أدخلوه حجرة العمليات. نقلوا كليته إلى أمه. أحس بعدهـــا بـــراحة فـــى الضـــمير. وظل هو وأمه فى المستشفى. حتى استكملا الشـــفاء. وانـــتقل الجميع إلى المنزل. فتح عينيه. وجد شربات وهى تفرش ابتســـاماتها على سريره. احتضن يدها. وأسكنها داخل عينيه ... سأل إخوته عـــن أبيه. لم يردوا. أعاد سؤاله. أسرع راضى ومحمد بالإجابة. قال محمد : ــــــ زمانه فى الشغل ... وقال راضى : ـــــ أصله بيبات فى الوحدة. وأخبأ علـــيه إخوتـــه حقـــيقة تواجده. لكنه فى النهاية عرف أن أباه طلّق أمه بعد إصرار منها فى اختلاق المشاكل معه. فاتحه أخوه محمد فى مساعدته للتعجل بالـــزفاف. أظهـــر له أنه سيكون جميلاً فى رقبته. ودين عليه سيرده له بعد ذلـــك. لـــم يـــتأخر حامد. قدّم يد العون لأخيه. تحدد يوم الزفاف. وكانت ليلة تحـــدّث عـــنها أهـــل المـــنطقة. سكن محمد وزوجته فاطمة فى منزل مجاور لإخوته. وسافر حامد إلى العراق.

طرق شوقى الباب. فتحت أم كريمة الباب. بوجهها البشوش استقبلته. أهلاً. أهــلاً. إزيــك يا شوقى. إتفضل ..... دخل شوقى وجلس. وضع الشبْكة على المنضدة المجاورة. كسى وجهه بالوجوم. بدت قسمات جبهته شاحبة باردة ، لا تماثل حرارة اللقاء. وبالرغم من فطنة أم كريمة لما يخبئه شوقى فى ستار سريرته. إلا أنها تجاهلت ذلك. رمقته بطرف عينيها التى تشع ذكاء. ودهاء. قالــت : ـــــ انت حظك حلو يا شوقى. الميّه سخنة أهيه. أشارت إلى الماء المغلــى فى الفنطاس. قوم إتشطّف ...تذكر شوقى. أن رياح الخماسين لفعته بغــبارها دون أن يدرى. استجاب على الفور. بعد أن ألقى نظرة على المرآة الكبيرة الماثلة أمامه بجوار السرير. سألها شوقى عن أبو كريمة : ـــ فين الحاج ؟ قالت بحنق : ـــ قطيعة. أهوه برّه فى القهوة. كل يوم كده. بيسهر لحد وش الفجر .... سبقته إلى دورة المياه وجهزت له المكان. ثم استطردت : ـــــ تعــال يا شوقى. اتفضل. وفى الطريق إلى دورة المياه. أبْصر كريمة وهــى تقــوم بكــىْ الملابس فى الحجرة المجاورة. ترفل فى ثوبها الوردى الفضــفاض ، تزينه دوائر قانية. شعرها الطويل الأصفر يتنهد بارتياح فوق بســاطة. هـــزّ فــؤاده ، ودفن القرار فى قبْر علوى. إن لم يكن فى القاع. رقصــات خــيوط شــعرها الأشقر فوق أردافها طرحت حزنه البغيض جانباً. وحلّت محله الانشراح والبهجة. رائحة أنوثتها الفائحة ارتطمت بأنفه فلم يقو على الصمود. آثر أن يدخل دورة المياه ليغتسل من أثر الخماسين. أحسّت أم كــريمة أن قلبها صعد إلى صدْرها مرّة أخرى. وعاد النبض كما كان. حدّثت نفســها : ـــــ شوقى كلْ البنت. لابد من جوازه منها. مهما كان التمن. لا

يمكـــن أن أطـــيق هذه الحياة المسلولة مع هذا الأجرب .... تطايرت نسمات الهـــوى واختلطـــت بالماء ، وتجسمت متخذة شكل البخار. ونفذت إلى رئتى شـــوقى ، فابتسم لهذه النشوى. تخيل أنه فى بيت الزوجية الجديد مع كريمة. لـــثَمها فـــى جبيـــنها. ثم فيها. وانحنى فى ضروع عند مفترق الثدى الناهد. عبقت مسامعه أهازيج ضحكة رنانة رقيقة. كانت بمثابة أمل يداعب مخيلته. لكـــن ســـرعان ما طارد هذه الصور. وذمَ حاجبيه اعتراضاً. على خلايا عقله لابـــد لها من الأدب والاحتشام. هال على خلجاته شيئاً من القدسية. شدّ قامته فـــى اعـــتدال ووقـــار. تشـــبث بكبريائه. هذه الزيجة لا يمكن أن تتم. صلاة الاســـتخارة الـــتى أقامها طواعية لإبراز المجهول. تعنى أنه لابد أن ينحر ما أقـــدم عليه من خطوات أولى فى حياته الجديدة. فلتذهب الشبْكة إلى الجحيم. الأشـــباح وجـــبال الـــثلج والـــنار كلها تقول. إبْعد. إبْعد. ولا تلق بنفسك إلى الـــتهلكة ... دنت أم كريمة من ابنتها. همست فى أذنيها : ـــ إلْبسى أحسن لـــبْس. عريســـك هـــايطلع من الحمّام دلوقتى. عايزاه يشوفك قمر ١٤ .... ابتسمت كريمة بدلال وعذرية. انسحبت فى رقّة الغزال قائلة : ـــ أنا كده يا مامـــا قمـــر ١٤ . ولما أتشيّكْ هابقى قمر ١٥ ... خرج شوقى من الحمّام. أخذ مكانه بجوار النافذة ، ينعم بإحساسه الجديد. تداعبه نسمات باردة تارة. وتوخـــذه كلمـــات الـــرفض فـــى لسانه تارة أخرى. جلست أم كريمة أمامه. يتـــبادلان الـــنظرات. قـــراره (يتذبذب) على طرف لسانه. يتأهب للمبادرة والانطـــلاق. ضغط على زناد عواطفه الجيّاشة ، فأحالها إلى هشيم. وأغمض جفنـــيه ثـــم ازدرد ريقه وقال بنبرة فاقد الأمل لا محالة. بعد أن استحضر فى

مخيلــته صورة الأشباح وجبال الثلج والنار : ـــ شوفى. يا ستّ أم كريمة.
أنـــا حظـــى شوية فى الدنيا دى. ومن غير زعل.انا صرفت نظر عن الجواز.
وبالنســبة للشــبْكة. أنــا متنازل عنها .... قال ذلك وقلبه يُدْمى. لكن واصل
بنــبرة متهدجة مجروحة : ـــ أرجوكى ما تزعليش. لأنى حاسس إنى مش
هــاقدر أسعد بنتك ... حدّقت فيه المرأة بحده وتمتمت : ـــ هيه وبعدين؟ !
قــال بعد أن قرأ على صفحة وجهها حُباً أكثر له : ـــ ضميرى ماخلصنيش.
وحبيــت أوضّــح رغبــتى. عشان لوْ جهْ ابن الحلال لبنتك. ما ترفضهوش ،
وتقولــى له إنهــا مخطوبــة لشوقى .... إنداحت على خديها غيامات القلق.
بيــنما كانت أشداق الآخر تنتفخ بحتمية التصميم. وكان يتوقع فى داخله أنه
ســوف يفشــل فى إقناع أم كريمة. خاصة عندما رأى كريمة قادمة نحوهما
حاملــة (الناسكافيه) فى صورة جديدة لم يرها فيها. قرص محياها كالبدر
فـــى منتصـــف الشهر. انبعث من خصلات شعرها الذهبى شعاع افترش قلبه.
فتخاذلــت الكلمـــات فى فيه. وتعثرت فى خضرة عينيها. وذاب التصميم على
صــدْرها الناهد ولاذ بالصمت اللانهائى. ناعماً بارتياح الرؤى. فؤاده يرقص
الآن وســط حديقتها. انحنت كريمة لوضع ما بيدها فوق المائدة المتواضعة.
انســحبت فى خفّة. انقبض قلبه متمنياً تواجدها. قطعت أم كريمة الصمت بعد
أن فطنـــت لحـــوار عينيه المتقدتين بلهيب العشق. قابضة على حبال الأمل.
الـــذى وُلد من جديد بعد ظهور كريمة امامه. قائلة : ـــ إنت يا شوقى بتزيد
معــزّة فـــى قلبـــنا يوم بعد يوم. وإنت بصراحتك دى. إسمح لى أقولك. بأنك
الـــراجل الوحـــيد إللى ألمن له ، وأديله بنتى. ويا سيدى ماتشيلش همْ. بيتنا

واســـع. وهاديلك فيه أوضه. وتعيش معانا .... عند هذا القول داعبه اليقين الذى كان غائباً. كيف نعيش معها فى نفس البيت؟! وهى تسعى كما سمع من صـــديقه (المصـــرى) لـــتزويج ابنتها. لكى تهرب من حياة سئمتها مع أبو كـــريمة. ربما بعد زواج البنت الوحيدة فى نفس المنزل ، تتجه هى إلى حياة جديدة. مع رجل جديد ، فى منزل آخر. ما المانع؟ انتابته هواجس شتى. لكن ســـرعان ما طردها. من مخيلته. استرق السمع إلى حديثها. واصلت متسائلة : ـــ مالك يا شوقى. انت سرحت فى إيه؟ قال شوقى متنبهاً : ـــ هيه. ولا حاجـــة. كملـــى يا ست أم كريمة. ـــ العفش موجود. والدوخلة بعد ست شـــهور. إيـــه رأيك؟ ارتجف لسانه. تناثرت الحروف فيه. لم يقو على جمع جملة ذات معنى إلا بعد تطاير وقْع المفاجأة التى أطاحت بكل توقعاته الدفينة. حجرة فى المنزل والعفش. وإبنتها كريمة. والدوخلة بعد ست شهور. يا ترى إيـــه اللـــى تقصـــده؟! أتـــتكلم بصدق؟! ام تهرىء وتستخفف بى وبقصورى وضـــآلة حيلتى؟! لا شك أنها الآن تنتظر ردى عليها. أنا لا أدرى نوايا الغير. لكـــل قلب آباره السيئة والطيبة. لم يستمر طويلاً فى تحليل كلماتها. بل أمعن فـــى عينـــيها بنظرة متنمرة. لمح الصدق لا غيره. هدأت عاصفته. تراجعت كلمـــات الغضـــب إلـــى وكْـــرها اللهيب. تشارك حزنه المطموس فى طلاسيم ماضـــيه الكئيب. ثم قال بلكنة فيها شكر وثناء وواقعية : ـــ والله يا ست أم كـــريمة. أنـــا مـــش عارف أودى جمايلك دى كلها فين؟ وده كرم كبير منك. وربـــنا يقدرنى وأردهالك فى الأفراح ... تنهدت المرأة بعذوبة ثم قالت : ـــ مـــبروك. مـــبروك يـــا شـــوقى. ثم همّت واقفة وادارت رأسها ناحية الغرفة

المقابلة. تنادى إبنتها كريمة : ـــ تعالى يا كريمة تعالى ... توّسطت كريمة الحجـــرة ، وقالت فى دهشة : ـــ فيه إيه يا ماما؟! فيه إيه؟! ... قالت الأم ودموعهـــا علـــى وجنتيها وهى تربت على منكبى ابنتها الوحيدة فى حنان : ـــ مـــبروك. مبروك. يا كريمة. الدوخلة بعد ست شهور. شوفى إيه إللى إنـــتى عايزاه. علشان نجهزه ... ككل بنت تحلم بمثل هذا اليوم. طربت عينى كـــريمة. وشـــعّ مـــنهما الابتهاج. لم تتمالك نفسها ، فأسبلت جفنيها بعد ان حصـــرت وابتلعت بداخلها صورة شوقى بدمه ولحمه. لكى تتفرسه على مهل فى مخدعها. وسرعان ما أفاقت من سكْرتها. انسحبت فى دلال تجتر وراءها أحلامهـــا المـــبهرجة ذات العمـــر الطويل. من الآن. لابد من حياكة الملابس والاســـتعداد ليوم الزفاف. وبغتة دوّى فى المكان طرْق مزّق الفرحة. اعتلت الدهشـــة الوجوه. قبلها بقليل نظر شوقى فى ساعته. وجد عقاربها قد زحفت حتى منتصف الليل. تمتم فى صمت : ـــ يا رب استر زاد الطرق. كاد الباب أن يُقلـــع مـــن مكانه. ذعرت أم كريمة. ألقت نظرة استفهامية ناحية شوقى الـــذى ترجمها فى رأسه. والذى تعنى (فيه إيه ؟) يا ترى مين إللى بيخبط كـــده ؟ انتفضـــت واقفة لكن كريمة سبقتها ناحية الباب. تستفسر الأمر. فإذا بصـــبى المعلـــم (حمزاوى) صاحب القهوة. يبلغها وهو يلهث : ـــ أبوكى مـــات يا كريمة وهوه بيشرب المعسّل. إلحقى أبوكى. تطايرت شظايا القنبلة إلـــى مســـامع الجمـــيع. تمتمت المرأة : ـــ العيال عاملين زى أبوهم ، ما يجـــوش إلا وش الفجـــر. لو كانوا هنا دلوقتى !! ومصمصت شفتيها. وهرع جمـــيعهم نحو القهوة. المرأة تتعثر فى ملاءتها السوداء. متثاقلة الخطوات.

مـــتظاهرة بالحزن. تخفى فى طيات أحشائها . سعادة لا تُقدر. ونهنهت كريمة فى حسرة وأسى ..

انصـــرمت أيام الحداد وئيدة ، تجر فى أذيالها الكآبة. شعر خلالها شوقى أن هـــناك قـــوة مجهولـــة تجـــره وتدفعه إلى قلب خور. لكنه تجاهل كل شىء طـــارىء. وأطّـــر حـــياته وفؤاده بالبهرجة المزعومة. رغم اقتناعه بسلبية المســـتقبل المهشـــم أمـــام ناظريه. لابد أن ينسى الماضى من خلال الحاضر والمستقبل. حياته لابد أن تنبض من جديد. مهما كلفه ذلك من عناء. القارب يـــتأرجح فوق صفحات المياه الرقراقة. هامساً فى أذن الليل. راجياً الخوض والإبحار. يغطيه الظلام كالدثار.

زُفَّ شـوقى إلـى حـياته الجديدة. نعمت كريمة معه بطيب أخلاقه. وعظيم خصـاله. سعادة عامرة جمعتهما خلال بضعة أيام من الزواج. أحسّ أنه كان غبـياً فـى فِكْرة رفضه هذه الزيجة التى أصبحت بمثابة طوق نجاة. قُذف له - مـن السماء ، لانتشاله من الغرق والدمار. كان عندما يتربع بجوار زوجته. يـتأمل عينـيها ويتحسس شعرها الذهبى ، وكأنه يسبح فى واد من السبائك. ويَحلق فوق حقول القمح فى آخر مراحل نموها. يغوص فى أعماق السعادة. يـتملك مـنه خـدْر حلو المذاق. يصعد به إلى عالم النسيان الأبدى. لو كان استسـلم لسعادته وحياته الجديدة دون النظر إلى ماضيه لما حاسبه أحد على الإطلاق. لكنه أذعن لضميره اليقظ. العدل والشهامة يتعلقان بتلابيب رجولته ، رغـم تعرضـه لإهانات. شتى من زوجته الأولى. فكان يتغاضى ويتجاهل. رافعـاً راية الصبْر فوق مغبّة الطوفان. لمقارنته فى مخيلته بين مشاكل أكبر حجماً ، تضرب بجذورها كالوباء المستشرى بين المجتمعات. ولأنه سمع من شـيخ المسجد. ما معناه. حواراً دار بين الرسول صلى الله عليه وسلم وبين زوجاتـه. يلقنهن فيه من الدروس والإرشادات. ما يجعلهن يتحملن التقشف

والزهد ، واختيار الآخرة. أفضل من الدنيا وما عليها. كان ذلك بمثابة مخدر. أمات فى قلبه الكرْه وأحيا العدل. زرع فى ضميره اليقظ. التسامح واللين.
مضـــى شوقى إلى منزل زوجته السابقة حمدية كسابق عهده. لكن ليس فقط من أجل إعطاء المصروف وقراطيس الفاكهة. ارتقاء الضمير وتحدى الأهوال دفعـــاه لاتخـــاذ قرار جديد. لابد أن يلقن أولاده دروساً فى الوفاء والشهامة. الأولاد لـــيس لهـــم ذنـــب يعاقبون عليه. ولهم الحق فى معرفة أية تطورات جديـــدة فـــى حـــياتة أبيهم الجديدة. حاول أن يؤطر صورته بالذهب فى إطار محكـــم غـــير مهـــزوز داخـــل مخيلتهم. لكن كان ذلك دون جدوى. لأن النار الموقدة ظلت مشتعلة من يوم الطلاق تزداد حدّة حتى تحولت إلى جمر ملتهب يعمـــى بصيرة من يتجرأ للإجهاز عليه ... وقف شوقى بسيارته الميرى أمام الباب. الساعة السابعة صباحاً. شمس الشتاء لا تحجبها سُحُب كالعادة. تُرسل أشـــعتها على الكون معلنة الأمان والهداية. انتظر برهة. مسلطاً عينيه على الباب. وحول النافذة. بغته لمح ابنه (محمد) مارقاً من الباب فى طريقه إلى عملـــه. نـــاداه . لبى محمد النداء. دنا منه. صافحه الأب من نافذة السيارة ، قائلاً : ـــــ شوف يا محمد. أنا إتجوزت. بلَّغْ إخواتك بكده. أنا مش هاسيبكم. هاجـــيلكم كل أسبوع. أشوف طلباتكم. وعايزك تاخد بالك من إخواتك البنات. ثم سأله عن أخبار حامد ... ـــــــ حامد جيه من العراق واتبرع بكليته لأمنا عشان كان عندها فشل كلوى وسافر.
ـــــــ برضه يا محمد. أخوك يجى من آخر الدنيا وما شوفهوش؟ ... ـــــ يا بابا ماكناش نعرف مكانك. وبعدين يا بابا أنا اتجوزت فاطمة بنت عمى محمد

قــبل ما يسافر حامد ... ـــــ كمان اتجوزت من غير ما أعرف على العموم. ألـــف مبروك يا بنى. وبيتك الجديد فين؟ .... ـــــــ قريب من هنا. على آخر الشـــارع بتاعــنا ده بالضبط. بس أنا كنت عند إخواتى دلوقتى بأديلهم هدوم لســـه مخيطها. أصلى يا بابا أنا بقيت خياط كبير قوى. وزباين المنطقة كلها بيخيطوا عندى. مدّ شوقى يده فى جيبه. أخرج عنوان حياته الجديدة. أعطاه لإبنه قائلاً : ــــ العنوان معاك أهوه يا محمد. صعد محمد إلى إخوته وأبلغهم الأمـــر. وكانت نظرات الدهشة والاستنكار من الجميع. أما أمهم حمدية. فقد تلقّــت الخـــبر بامتعاض وذعْر مجسم بمادة جديدة لم تألفها البشرية. دارت حـــول عالمها الذى نخره السوس. لم تجد سوى عظام معلقة. حدّثت نفسها : ــــــ راجـــل لـــيه ســـبع ولاد. إزّاى يبدأ حياة جديدة ؟! وفى مدة قصيرة ، يـــتجوّز؟! يـــا ترى مين هيّه ؟ أكيد مطلقة وبتجر وراها ولادها الخمسة أو العشرة. وممكن تكون أرملة سابها جوزها بولادها وأملاكها. وربما من غير أمـــلاك. وحتى لو كانت مطلقة أو أرملة. إزاى تقبله جوز بالرغم من علمها بأنـــه مـــتجوز ومعاه سبع ولاد؟ اكيد خبى موضوع جوازه وولاده. لا.لا. أنا عارفـــه شـــوقى كويـــس. عمـــره ما يكذب ... وأخذت تُقلب صورة الزوجة الجديـــدة. اســـتبعدت نهائـــياً أن تكون عذراء. لم يسبق لها الزواج من قبل. تلقفـــت ملاءتهـــا من فوق السرير. وتلفحت بها وخطفت العنوان من محمد. واسرعت خارج الشقة. كادت أن تتعثر فى أدراجها. لولا أنها استندت بيديها المرتعشتين على الجدار. واصلت المسيرة. فى قلبها الحنق يغلى. ويسبح فى رأســـها ضـــباب الانتقام. استقلت الأتوبيس إلى رمسيس. سألت عن المكان.

عـثرت علـيه بعد عناء. تقدمت وطرقت الباب. فتحت كريمة. قذفتها حمدية بـنظرة ناريـة ، يـتطاير منها ضباب كثيف. سرعان ما تجسّد على لسانها ألواناً من الشتائم والسباب. ذلك بعد أن سألتها : ـــ إنت العروسة الجديدة. مـرات المحـروس شوقى؟ . ـــ أيوه أنا. ـــ اسمك إيه يا محروسة؟ ... ـــ إسـمى كريمة. بتسألى ليه. فيه حاجة؟ ـــ إزاى يا هانم. تتجوزى راجـل مـتجوز وعنده سبع ولاد؟ ! إنت خطّافة الرجالة. خطفتى جوزى من ولاده. إحـنا نـروح فين دلوقت؟ أنا هابهدلك. لو ما كونتيش هاتسيبيه ... واجـتمع الخَلْق يستكشفون الأمر. حمدية لم ترتدع. أمطرتها بكؤوس المهانة والوحشـية. تجرعـت كريمة الوجبة بشىء من الصبر. أرجأت الاستفسارات إلـى المسـاء حـتى يعود شوقى. حاورت نفسها : ـــ أمى هى السبب. لم تبلغـنى بأنه متزوج. لابد أنها أخفت علىَّ هذا الخبر. ولو كانت موجودة الأن لعرفـت تـرد على هذه المرأة الوقحة. جاء المساء بمظلته السوداء. ناشراً صـقيعه فـى المنطقة. دخل شوقى وخلفه أم كريمة. بدأت القضية. فُتح باب المداولـة. القاضـى كريمة والمتهم شوقى. والشاهد الوحيد والمتستر وراء مـاحدث أم كـريمة، صـمت شوقى ولم يجب. تولت أم كريمة الإجابة على استفسـارات ابنـتها بعد مسحها لدموعها فى حنان : شوفى يا بنتى. أنا ما عملـتش حاجة غلط والراجل ما يتعايبش. ورجولته كامله والحمد لله. ولو. لفيـتى. الدنـيا. كلها مش هاتلاقى راجل زى شوقى. أنا عايزاكى تنسى إللى حصـل. ومـا تفكـريش فـيه تانى ... قالت كريمة من خلال آهاتها وأنّاتها المـتهدجة : ـــ يا ماما. أنا مش بأشك فى الكلام إللى إنت قولتيه. إللى أنا

عايزه أعرفه. إزّاى يخبى عليا إنه متجوز؟! . هنا اهتزت أمام شوقى صور الشتاء بألوانها المتباينة. اختلطت فيها الأساطير والمغامرات. فاكفهر وجهه وانتابه الاضطراب. حدّث نفسه : ـــ يا ترى كم يكون عمر حياتى الجديدة؟. لـــم يكـــتمل العـــام علـــيها بعـــد . السعادة تركلني مثل الكرة . استر يا رب .... جذبـــت أم كـــريمة ابنتها داخل الغرفة المقابلة . تطلب منها الصمت حـــتى توضح لها الأمور . خافت على مشاعر شوقى التى لا تحتمل النزيف لأى هفـــوة بعد ذلك . وبشىء من الصبر والحكمة أقنعت المرآة إبنتها بقولها :- شـــوقى مـــش غلطـــان . ولا انا غلطانة. هوة صحيح قال لي إنه مجوز ومعـــاه ســـبع ولاد . وانـــة طلق مراتة لسوء معاشرتها له . وهوة دلوقت بيعتـــبرها خدامة لولاده . وهمه دلوقت بيعتمدوا على أنفسهم في الشغل . وهـــوه ما بيروحش عندهم الا كل فين وفين. ومن على الباب. بيعرف أخبار أولاده. وهوّه فى الشارع. يعنى يعتبر مش متجوز حد إلا إنتى وبس. فهمتى يـــا حبيبـــتى. خـــدى الأمور ببساطة. ماتعقديش الأمور. وبعدين الجواز مش حـــرام. الراجل بيدوّر على الحنان والسعادة إللى مش لاقيهم فى بيته. ولقاهم عـــندك هـــنا. وأشـــارت إلى بطنها المتكورة تذكرها بالضيف الجديد ... ثم اســـتطردت. الرسول صلى الله عليه وسلم اتجوز كتير. والشرع محلل أربعة للـــراجل. والإســـلام فيه سماحة. وإنت يا حبيبتى لازم تسامحيه وتسامحينى وضـــل راجـــل ولا ضـــل حيطة .... أجهشت كريمة بالبكاء. تذيب بدموعها الصـــدمة الصـــلدة الـــتى تلقـــتها فى عنف وبغير هوان. وتحل محلها العفو والغفـــران. فـــى المضجع عاتبت كريمة زوجها بشىء من الدلال. : ـــــ يا

راجــل إنــت إزاى تسمح لنفسك بفتح بيت تانى. مش كفاية البيت الأولانى؟. لكــزته بكوعهــا وهى تروضه : ـــ ابعد عنى. انت راجل كذّاب ... أشرقت شمس الأمل من جديد داخل شوقى. احتضن كريمة أسفل ذراعيه. اتخذت من صدره وسادة. همس فى أذنيها : ـــ يا حبيبتى يا روحى. انت بالنسبة ليّه. كــل حاجة. وبعدين يا ست الستات. اعتبرى حمدية أختك مش طليقتى. إنت لازم تكونـــى أحســن منها. هيه المجنونة وإنت العاقلة. ولو جات لك فى أى وقت رحبى بيها.. ـــ بس دى بهدلتنى... ـــ لما تلاقيكى بتستقبليها حلو. هاتتكســف .... أومــأت برأسها معلنة الموافقة. تلاحم الثغران فى غياهب طريق بستان مزهر.

(١٦)

تــزوج أشقاء كريمة الصبيان. استقل كل منهم بمنزله الجديد. داعبت المرأة فكــرة الزواج من شاب عزب ، لم يسبق له الزواج من قبل. وها هى منادااة خفية من وراء تيه الزمن تجلب لها هذه الفكرة من حين لآخر. خاصة بعد ان تحــررت بحــياتها من قيودها. وفاة الزوج وزواج البنت والأولاد الصبيان. شــعرت بحيويتها وأنوثتها. من يراها يقول أنها بنت الثلاثين.رغم تجاوزها الأربعين بقليل. استحضرت فى ذهنها صورة (المصرى) صديق شوقى. هذا الشــاب مفــتول العضــلات. طويل القامة. له وجه كالأسد. تسيل من عينيه الجســارة. وتعلــو نبرة صوته الجرأة. هو صاحب الفكرة. لا أحد غيره. هو الذى جاء بشوقى إلى هنا. يطلب يد ابنتى. كادت عيناه تقتلعنى داخلها. كثيراً مــا رمقــته فـــى هذه الحارة يترصد خُطاى. إنه لا يتردد لحظة واحدة. ولن يخذلنى فى أن يشاركنى حياتى القادمة. إذا وجد استجابة وقبولاً منى. لكن ما الــذى يدريــه بالأمر؟ نامت ليلتها. يرافقها المصرى فى صنع القارب الذى سوف يخوض بها حياة جديدة ، تعوضها عن حياة سالفة قاتمة. فى الصباح. أشاحت عن جسدها الجلباب الأسود وارتدت الثوب الوردى. اعتلتها ابتسامة مفعمــة بالأمــانى. انــتظرت شوقى حتى خرج من الحجرة. وقالت له بنبرة

جريئة : ـــ انت يا شوقى بتنسى أصحابك ولا إيه؟ دُهش شوقى عندما رأها بـــثوبها الفضفاض الفاضح. لكنه آثر الصمت مكتفياً بمصمصة شفتيه. انتبه لتســـاؤلها : ـــ أصحابى ؟ ! زى مين يعنى؟ ... ـــــ الجدعين إللى كانوا معـــاك لما جيت تخطب كريمة ... شرد قليلاً ثم قال : ـــ أيوه. أيوه. قصدك على (برعى) و(المصرى) ـــــــ ايوه يا سيدى. دلوقتى يقولوا علينا إيــــه؟ ماقدرناش نقوم بالواجب!! لا يا شوقى. انت غلطان. انت لازم تعزمهم عـــندنا ، هـــنا. بقى هاتهم يتغدوا عندنا بكره ... ـــــ خلاص يا ست اللى تشوفيه. طلباتك يا أم كريمة.

اجتاحت المرأة بهجة لا حد لها. وبدأت تفكر فى كيفية الاستقبال. كانت تود أن تقـــول لشـــوقى : ـــــ هات المصرى لوحده. لكنها خشيت من الشكوك وســـوء الفهم. فتجاهلت اسمه. واكتفت بقولها (الاتنين اللى كانوا معاك. لما جيـــت تطلـــب إيـــد كـــريمة). إنهـــا تكره مجرد النقاش فى أى كلمة تتعلق بموضـــوع زواجها. لذلك التزمت بالحكمة والصبر والتدبير فى كل تصرفاتها إزاء ذلـــك. كانـــت أول خطـــوة تخطوها ناحية الدولاب. فتحته. تناولت علبة المصـــاغ الـــتى تحتوى على قرْط من الذهب الخالص ومجموعة من الاساور الذهبية. ورثتها عن أمها ، ثم خرجت إلى حانوت المجوهرات. باعت القرط. والأســـاور لتبـــنى الـــدور الـــثانى. عش الزوجية الجديد الذى سيضمها هى والمصرى على السواء. فوق الدور الأول الذى ورثته أيضاً عن أبيها التاجر الـــراحل. وفـــى المساء. مضى شوقى قاصداً منزل صديقه المصرى. الذى لا يبعد كثيراً عن رمسيس. طرق الباب. قابله المصرى مرحبا ... ـــــ اتفضل

يـــا شـــوقى. إزاى حالك وإزّاى العروسة .. ـــــ الحمد لله بخير. إزيك إنت ... نظـــر جانـــبه. وجد إمرأة عجوز. انتبه المصرى للأمر. فقال مشيراً إلى والدتـــه : ـــ دى أمى أصل سمعها تقيل شوية ... صافحها شوقى ، وجلس مواجهة للمصرى على أريكة متواضعة. ثم قال : ـــ عايزين نفرح بيك بقى يا مصرى. مش ناوى تتجوز ولا إيه؟ ـــ أنا عن نفسى مش لاقى عرايس. إذا كـــان عـــندك ؟ . أنا جاهز ... وتبادلا النكات والضحك. قال شوقى خاتماً اللقـــاء : طيـــب. أناها ستأذن يا مصرى. وبكرة إنشاء الله غداك عندنا. وإذا عرفـــت تقابل برعى بالمرة تبقى تبلغه. أحسن أنا تعبان دلوقت. وهانام على طـــول. مـــش هافضـــى أروحله .... قال المصرى مرحباً بقبول الدعوة التى جـــاءت فى توقيت مناسب : ـــ أنا قلت يا عم إنك نستنا ولا. إيه الحكاية؟ أيـــوه يا عم عندك حق (اللى لقى أحبابه ، نسى أصحابه) ... قال شوقى : ـــ يا مصرى يا خويا ، أنا ما اعرفش أكذب. الست أم كريمة هيّه اللى قالت لـــى هات أصحابك اللى كانوا معاك ليلة خطوبة كريمة ... عند هذا الحد من القـــول. ازدادت ضربات الأحلام. شرخت نبضات فؤاده. ها هو الحلم يتحقق على أرض الواقع. كثيراً ما كان يمتع ناظريه برؤيتها. حطمت فيه كل وجدان جديد يُولد. أسَرَتْهُ بجمالها الخلاّب. لا جمال ولا أنوثة فى أى أنثى تحاذى ما امتلك لُبّه من قداسة لهذا النوع الفريد من النساء. أحسّ أن أبواب الفؤاد قد أوصـــدت على حارسها. لم يصدق أحلامه فى البداية. لكنها الآن تتقدم نحوه. لا تخذلـــه. بل تمد يدها له وتبتسم. فيرى مستقبله فوق شفاهها. كان حينئذ متعطشـــاً لرؤية هذا الجسد الفتّان. كان يتوقع مائة فى المائة أن هذه الزيجة

لــن تــتم. صحيح كان عالماً بأخبار هذا المنزل أولاً بأول. لكن مفاجأة القدر الــتى عجّلت بموت أبو كريمة. فتحت له آفاقاً جديدة فى عالم الأمل والقبول وعدم التردد. الظروف سانحة أمامه. وها هى أولى الخطوات. الغذاء غداً ... قــال المصرى بمكر : ــــ إنشاء الله. هاكون عندكم بكره الضُهر. وبالنسبة لبرعى. أنا هاعدى عليه. وهاجيبه معايا. قال شوقى : ــــ واعتبر يا سيدى البيــت بيــتكم. علشان مش هاقدر أكون معاكم. علشان فيه شوية مشاوير بالعربــية ، لســيادة اللــواء.... وضع المصرى فى اعتباره أمراً. ضمر فى داخله أنه سوف يلتقى بأم كريمة. فريداً بدون برعى. لكنه آثر أن يخفى هذه الرغبة عن شوقى. حتى لا يكون هناك ريب. انصرف شوقى إلى داره. وقبل صــعود المصــرى إلــى مضجعه. ودّع أمه متمنياً لها صباحاً جديداً وعمراً مديــداً. تمتمت بصعوبة : ــــ وأنت من أهله .... أطلق السماح بالإبحار فى هــذا الجســد الســحرى الــبض الذي طالما عشقه من بعيد. فاقداً الأمل فى الحصــول عليه. لكنه الآن لابد وأن يضع أول لَبِنَة فى صرْح حياته القادمة. يــا تُــرى . ماهو شعورها نحوى ؟! هل ستستجيب لنداء عيني وقلبي ؟ هل ســتلبي دعوتي في أن يضمنا جدار واحد ؟ إذا حدث ذلك بالفعل فسوف أكون أســعد إنســان فــي العالم . كلما أراها أشعر بالارتياح وإذا غابت عن عيني ينتابنــي الضمور والألم .... وراح راجيا غداً والغذاء على العدْو باقصي ســرعة . وأن يعاونــاه في الوصول الي دواء الضمور والألم . اعتدل علي جانــبه الأيمــن . احتضن وسادته . استحضر صورة أم كريمة . ياترى . ما اســمها هــي؟!غــدا او بعد غد . سوف أعرف . صنع لها تمثالا في مخيلته

.واضعا لمساته الأخيرة . أخذ يلثمها في جبينها بين الحين والآخر . ثم اتجه إلـــي شـــعرها المجدول الأشقر . حصره بين أصابعه في خصلة واحدة . حفه بإطـــار من الزهور . وامتطي ظهر الحصان الأبيض الرابض أسفل النافذة . بيـــنما هي قفزت أمامه . طالبة منه الصعود إلي جزيرة نائيه فوق السحب . استيقظ في الصباح ليوقظ أمه . وجدها قد فارقت الحياة.

همست كـريمة فـي اذن زوجها : أنا ها طلب منك طلب صغير يا شوقي . ممكـن تـنفذ هولي ؟ قال شوقي :- أأمري يا ست الكل .....-ـ أرجوك رد حمديـة لعصـمتك . دي مهمـا كان أم ولادك . بلاش تزعلها وما تكسرش بخاطـرها . دي لمـا جاتني هنا . كانت عامله زي المجنونة . وانا بصراحه خايفـه تعمل فيك حاجه . ارجوك يا شوقي ردها ...... دهش شوقي ثم قال :- انـت يـا كـريمه اللـي بتقولي الكلام ده ؟!! إنت ؟!! أكيد فيه سر انا معـرفوش!! قولـي ايـه اللي حصل؟.... ــــ يا شوقي يا حبيبي . مفيش حاجـه حصلت . كل الحكايه إني عايزاك تردها لعصمتك . علشان نعيش في أمان . وبعدين ياسيدي . هيه مش انسانه برضه من لحم ودم ؟! ...... ــــ يا كريمه . أنا لما قولت لك عامليها كويس لما تجيلك تاني ، واعتبريها أختك . مش معني كده ان انا حنيت لها . انا قلت لك كده عشان صوتها ما يعليش أما بتكون هنا .... ــــ أيوه انا عايزاك تردها عشان فضايحها وصوتها العالي .... ــــ هيه حيوانة مش انسانة هيه لو بتفهم . كانت فرطت فيّه ؟. دي دمهـا ولحمهـا مخلوطين بالغباوة . ماتخافيش يا كريمة . مفيش حاجه هاتحصـل ..... قالت كريمه بنبرة كلها تصميم :-ـ أرجوك يا شوقي اذا ما

كنـــتش هتردها لعصمتك ، يبقي ننفصل أحسن ...... وبعد صمت كئيب طغي علـــي نور الصباح . واصلت :ـــ علشان أنا مش فاضية للبهدلة كل شوية فـــي الشارع . والناس تتفرج علينا . أرجوك انا مش عايزة فضايح أكتر من كـــده ...... وأجهشت بالبكاء ، فاحتضنها شوقي هامسا :- خلاص ياستي . هاردهـــا علشان خاطرك . ولا تزعلي ...... لم يكن في دخيلة شوقي أو حتي عزْمتة . الرغبه في العودة إلي الماضي الملفَع بالغيوم . الحاضر والمستقبل يطالـــبانه بالعودة الي الوراء . هل هذا معقول؟ حتى السعادة أوحشتها ليالى الدُجـــى !! كـــان يُـــود ركْل الماضى بلا رجعة. لكنه الآن. لم يَفْلح. تَبَنّى هذا الرجاء بحكمة الحكماء. كفاه شقاء. أضحى نفسه أسطورة جديدة على العالم ، لابـــد من تنقيحها فى أجمل إطار. حتى تتعظ الأجيال القادمة. وتقبض بقوة علـــى مفاتيح الأيام عندما تحن للاعوجاج. هل حمدية تحن إلى الصواب؟ أم. هـــى غـــيره مجنونة اجتاحت أسوار غريزتها ؟ أم تريد هذه المرَة ، القضاء علـــيه نهائياً؟ حتى تريح نفسها من كل ذلك ؟ الله أعلم ! وراح يفترض لكل برهان معطياته. وهو يغتسل ، قبل انصرافه للعمل.

****

الشـــمس فـــى كبد السماء. ترسل أشعتها فى وداعة وصفاء. وقف المصرى أمام الدولاب. ينتقى أفخر ثيابه. ارتدى بذلته البنية المقلّمة. ولم ينس رابطة العـــنق. وامتـــثل أمـــام المـــرآة. يُكَرّم شعره. بين الفينة والأخرى ينظر فى ســـاعته. شـــق طريقه إلى نهاية الشارع فى خطى حثيثة. تداعب أنفه رائحة حـــياة جديـــدة. وتغزو عينيه ملامح الجسد البض النابض المنصهر فى أتون

صـــهريج أحلامـــه. أم كـــريمة تطل من النافذة. منتظرة فارس أحلامها على وجــل. وهـــاهو قـــادم. كاد يتعثر فى خطواته التى وئدت عندما دنا من باب المنزل.

بعــد انصـــراف شوقى. غطّت كريمة فى نوم عميق. تركتها أمها. لم تقل لها مــثل كـــل يوم. بلاش كسل. النوم الكتير مش كويس. دلفت المرأة إلى باب المـــنزل. زحفــت الأصابع. التحمت الرُحى وهى تتراقص لحرارة اللقاء. أن الأحاســيس لـــم تنقشع بعد. والنوايا لم تترك فى قاع المجهول. لكن البواطن أحياناً تنتصر على الظواهر. وتظفر بما كسبت رهينة . وعلي مائدة الغذاء . تـــبادلا الحديث والهمسات. بدأها المصرى قائلاً بعد أن ضرب بالحياء عرض الهـــواء. فاتلاً لسانه بحبال الجرأة والشجاعة : ـــــ شوفى يا ست أم كريمة. أنـــا هاطلـــب منك طلب. ويا ريت تنفذ هولى. قالت بلهفة : ـــــ انت تأمر .. ــــــ أنا عايز أعزف اسمك. اسمك إيه؟! ... أم كريمة تقول بعد صمت تعنى (الكلمـــة علـــى لسانه. بس لازم يعمل مقدمات) الأمل يداعب الآن مشارف قلـــبها : ــــ إسمى. بس كده؟! اسمى (سامية) ... ـــــــ شوفى يا سامية. أنـــا مش هاخوش فى مقدمات. أنا من زمان وكنت حاطط عينى عليكى. أملى الوحـــيد. إنك تكونى شريكة حياتى. والفرصة دلوقتى موجودة. إيه رأيك ؟ .. قالت متشبسة بالدهاء الذى لا يفلت من أى أنثى فى مثل هذه المواقف : ـــــ يـــوه وايـــه اللي كان مخليك متعشم أوي كده ؟! – يا سامية أنا كنت عارف الخلافـــات اللـــى كانـــت بينك وبين المرحوم وكنت متأكد إنك لازم هاتنفصلى عنه. والمكتوب على الجبين. لازم تشوفه العين. والحمد لله. ولادك إتجوزوا.

والجــواز مش حرام. وده من حقك. وكمان انتى مش قاصر ... ـــ إيه ده !!! أنــت جيبت الكلام الكبير ده منين ؟! ـــ الدنيا مدرسة كبيرة يا سامية. والقلــب ومـــا يــريد. ...استمعت سامية إلى هذه الكلمات. وقد انتابها نشوة عارمـــة إلى تقبيله. أثناء ذلك أجهز عليها المصرى بقوله : ـــ وبعدين إنت صـــغيرة. واللـــى يشوفك. يقول عليكى لسه ماتجوزتيش ... انتشيت سامية لقميص عواطفها الجديد الذى ألبسه لها المصرى بغزله المعسول. وتقمصت شخصـــية العـــذراء. وتورد خداها ، وقالت فى خجل : ـــــ طيب والولاد؟ وشـــوقى ؟ هـــاقولهم إيـــه ؟ ... ــــــ بسيطة. قولى لهم. وفهميهم الوضع ببســـاطة. وعلـــى ما أعتقد إن كل واحد فيهم مشغول ببيته ومراته وعياله. وبعديـــن دى حياتك إنت. وطالما ما بتعمليش حاجة غلط. إوعى تتهزى. أما شـــوقى. سيبيه علىّ أنا. أنا هابلغه بمعرفتى. وفى أصعب الظروف. دا. إن. ماوفقوش قولى. دى. حياتى. وأنا حرّة فيها ...

بعـــد تـــناول الغـــذاء. انصـــرف المصرى. عازماً الأمر. أن يفاتح شوقى فى الزواج الميمون.

في المساء. انحنى شوقى بالسيارة الميرى ناحية سوق السلاح. لتنفيذ رغبة كـريمة فـى ردْ حمدية إلى عصمته. نزع المفتاح من الكونتاك. أبطل محرك السـيارة هذه المرة. صعد السلم. طرق الباب. فتحت نفيسة. احتضنت أباها ودلفـت إلى الداخل حيث يلتف الأبناء حول الأم فى حلقة سمر. تنادى : ـــ بابـا. جه. بابا. جه. وقف الجميع فى دهشة. صافحهم الأب. وجلسوا جميعاً مـرة أخرى. قال الأب بنبرة تنم عن فتح صفحة جديدة : ـــ إزيكم يا ولاد؟ عامليـن إيـه؟ .... رد الجميع فى إجابات متفرقة : الحمد لله. إزيك يا بابا. عـامل إيه؟ إزاى حالك؟ ... قال الأب : ـــ أنا جيت النهاردة علشان المية ترجع لمجاريها.

أرد أمكـم لعصمتى. ونعيش مع بعض ... بادرت نجية متسائلة : ـــ تعيش معانا. هنا يا بابا؟! وماتروحش البيت التانى؟! ... نظر إليها الأب. ولم يرد. وواصـل بعـد أن أبصر رقبة حمدية تتمطى فى طريقها إلى الاعتدال قبالته. متفحصـة كلماته : ـــ بس. ده. متوقف على موافقة أمكم ... قالت حمدية بلهجـة إغـراء : ـــ ومين قال انى عايزة ارجعلك؟ .. التف الأولاد حولها

يــرجونها أن يتقاســم معهــا اللــيالى. ليلة هنا. وليلة هناك. تمت الموافقة ظاهرياً. أما داخلياً. فكانت تود أن تستأثر به وحدها. كانت أول ليلة نصيبها.

* * * * * * * * * * * * * * * * * *

استيقظت كريمة فى المساء. قلقة على زوجها. ليس كعادته. نادت أمها وهى تــتألم : ـــــ يــا مامــا. يا ماما. إبعتى للداية. أحسن قرّبت أولد. ثم قالت لنفسها. بقى كده يا شوقى. يوم الولادة ماتكونش موجود؟! .. جاءت الداية. وصرخ (حاتم) معلناً يوم ميلاد جديد .. فى الصباح. عزمت (سامية) على أن تــبلغ ابنتها كريمة بنبأ زواجها من المصرى. التى أبدت موافقتها بإيماءه برأسها بجوار مولودها. متمتمة : ـــ إللى تشوفيه يا ست الكل. دى حياتك. وانــت عارفــة مصلحتك فين .. ثم زارت اولادها الواحد تلو الآخر. تخبرهم بقــرار زواجها. أبدوا جميعاً رغبتهم بالإيجاب. ببساطة غير متوقعة. تنهدت ســامية منتشــية بدلال خفى. وأسرعت الخطى إلى المقاول. لتعهد إليه ببناء الطــابق الــثانى. وشرع المقاول فى جلب الأنفار ومواد البناء. عرج شوقى بســيارته المــيرى ناحية الورشة. قابل المصرى. متسائلاً : ـــ هيه. رحت إمــبارح؟ وأخــذت بــرعى معاك؟ ... صمت المصرى برهة. ثم قال : ـــ شوقى. قولى مبروك ... قال شوقى بدهشة : ـــ مبروك. مبروك. على إيه؟ إنت إتجوزت؟ قال المصرى من غير مقدمات كعادته : ـــ أنا خطبت حماتك. وقــرأنا الفاتحــة. بــس مستنى موافقتك. إيه رأيك؟ قال شوقى مستنكراً لما سمع. غير مصدق لما قيل : ـــ مش معقول. هزّر فى حاجة تانية غير كده. إنــت دايماً بتحب الهزار عمّال على بطّال ... ـــــ لا صحيح. إيه رأيك؟! ..

حـــدّق شوقى فى عينيه. فوجد الجدية والصدق. فقال دون مبالاة : ـــ بدام قريـــتم الفاتحـــة. يبقى خلاص. ألف مبروك ... انصرف شوقى إلى الوحدة. غير مصدق لما سمع. وتذكّر كلام المصرى له فى بداية معرفته بدار كريمة. والوصـــف التحليلى لأم زوجته وكأنه يصف مباراة لكرة القدم بكل جزئياتها. تذكـــر عندما كان فى الورشة منصتا . وقتها تصبّب عرقا. أكثر من أى وقت آخـــر رغـــم بـــرودة الجو. فصدّق كل شىء ، وأرجأ الاستفسار إلى أن يعود مساءاً.

****

فى المساء. قبع شوقى بجوار أم (حاتم) قبّلها. ثم أمطر ما تبقى من قبلات فـــوق جبيـــن (حاتم). داعياً لها بالسلامة وطول العمر. وفطنَ إلى نظراتها الاستفهامية. فأجاب بأنه. ردّ حمدية إلى عصمته. وبات ليلته الماضية معها. وأن رغبـــتها قـــد نُفّذَتْ بالحرف الواحد ابتسمت شاكرة صنيعه. وانحدر من خديهـــا دمعتان. جففهما بأصابعه فى حنان. دخلت أم كريمة عليهما. صافحته وهى تنتظر كلمة (مبروك). وسرعان ما سمعتها. فطربت لذلك أيّما إطراب. وهزجت أساريرها وخلجاتها. وراحت تغط فى أحلام وخيلاء.

****

اكتمل الطابق الثانى. وكانت حياة مبهجة مزهرة. اغترف كل منهما من الآخر رحـــيق المجهول وأمل الانتظار. اقتسم شوقى لياليه بيت حمدية وكريمة ... وتـــركض الأيـــام والشهور والسنون عبر جسور الزمن. ينجب شوقى خلالها مـــن كريمة غير حاتم. عماد وإبراهيم وسحر. وينجب المصرى من سامية ،

بنتاً واحدة. اختلفا على تسميتها. لكن انتهى الأمر بالوفاق واختيار (فريدة) اســماً لها. وفى يوم من أيام الصيف. عندما جاءت ليلة حمدية. اتجه شوقى إلــى هناك. صعد السلاملك. وطرق الباب أكثر من مرّة. حتى كلّت يداه. سمع صــوتاً يأتيه من أسفل : ــــ مين إللى بيخبّط؟! ـــ أنا شوقى ... ــــ عايــز ميــن ؟ . ــــ عايز الجماعة. الولاد ..... كان هذا الصوت ، هو صــوت الأرملة. نزل شوقى ليسأل عن أولاده. وجد الأرملة وقد كُف بصرها. قالت الأرملة مراتك وعيالك عزّلوا من هنا. وصاحب الشقة خد المفتاح منهم ... ـــ إزّاى وإمتى الكلام ده حصل ؟!.

ــــ من امبارح بس .. ـــ وماتعرفيش راحوا فين؟ .. ـــ كانت بتقول انهــا هاتــروح عند أخوها. .. ـــ أخوها ؟! حازم .. ـــ هوه فيه غيره ؟! ... تمتم شوقى فى غضب : ـــ لا. ما فيش غيره ! .... دارت الدنيا برأسه ، وأســرع بالســيارة تجاه منزل حازم. طرق الباب. فتحت (عزيزة) . دخل كالمجــنون يســألها : ـــ فين أمك ؟ ! ـــ راحت مشوار .. ـــ إيه إللى نيلــتوه ده؟! ... التفّــت البــنات حــول أبيهم. ووقفت زوجة حازم تترصد الكلمــات. امــا حازم وأولاده الذكور كانوا بالخارج. وراحت نفيسة تسرد ما حــدث : ـــ شوف يا بابا . أنا ها قولك على اللى حصل بالضبط. فقرصتها نجــية خوفــاً مــن بطش أمها. تجرأت وقالت : ـــ بس يا نجية. بابا لازم يعــرف كــل حاجة. ثم استدارت. مواجهة لأبيها قائلة : ـــ الراجل صاحب الشــقة قال لماما. أنا ها ديكى ٥٠٠ جنيه وتسيبى الشقة. وافقت ماما على طول. وقالت له. والعفش تاخده بالمرّه بس بتمنه. وافق صاحب الشقة وإدى

لماما الفلوس واشترى العفش. وجينا على هنا. ... أثناء ذلك . دخلت حمدية تتبخطر فى ملاءتها اللف. عاتبها شوقى بشدة ليه يا حمدية ؟ عملتى كده ليه ؟! هوه ناقصك حاجة ؟ .. ـــ عملت إيه. يعنى إيه؟! . الدنيا اتهدت علشان اصـــرفت. هوه انت بتسيب فلوس نصرف .. ـــ والفلوس كلها إللى بابعتها ليكم ما بتكفكيش ؟! .. ـــــ بقولك إيه يا شوقى. انت ها تعمل تحقيق؟! ... خشـــى شوقى من لظى التمادى فى الأسئلة. فتزوّد بالصبر والحكمة. قائلاً : ـــــ على العموم. شوقى شقة تانية. وانا ها دفع لها الإيجار ... ورسى بهم المقام فى شقة أخرى بحى البساتين. مكثوا فيها ثلاثة شهور. وحدثت مشادة بيـــن حمديـــة وصـــاحبة الشقة. هجروا على إثرها إلى حى شبرا. دون علم شـــوقى أيضاً. قطنوا فى منزل قديم مبنى من الطين. يقع وسط طابور طويل مـــن المنازل اللبنية. ولم يمض أسبوع حتى سقطت المنازل على من بداخلها نتـــيجة زلـــزال مفـــاجىء وكان يوماً مشهوداً. يوماً عصيباً. كالحُطمة. مات الكثـــير تحت الأنقاض. وجرح البعض. وفُقئت وشُوهت أعين وأجساد البعض الآخـــر. ونجـــا مـــن كُتبت له النجاة. وهللوا بفوز أرواحهم فى ساحة البقاء المؤقت. نجت حمدية وأولادها. وجاء المسئولون من رجال الحكومة. ناشدوا الأهـــالى بالـــتوجه إلـــى الخيام التى نُصبت لأصحاب الكارثة فى حى السيدة زينـــب. وعدوهـــم ببـــناء مساكن شعبية لهم ... فى هذه الأثناء. كان شوقى مكلفـــاً لمهمـــة عسكرية رسمية مع اللواء فى أسوان. وفى الليلة الموعودة. اتجـــه شوقى إلى البساتين كالعادة . لم يجد أولاده . سأل الجيران . لم يدله أحـــد قط . هرع إلى برعى يستطلع الأمر . فهو يعلم أن أولاده دائماً يتركون

أخبارهم عنده عندما يغيب عنهم . حكى له برعى بالتفصيل ما حدث . كاد أن يلطم خديه . لكنه تراجع . تسلّح بالصبر واقتاد سيارته إلى حى السيدة زينب. دخل الخيمة. قابل زوجته وأولاده. صرخ فيهم : ـــ كويس كده. الغلب اللى احنا فيه ده؟! عاجبك المرمطة ديه؟!...صمتت حمدية ولم ترد.

اتصل بشوقى أولاد عمه فى شنهور بالوجه القبلى. راغبين فى زواج أبنائهم الذكور من بناته الأربعة. رحّب بالفكرة. لكن حمدية. أقسمت ألا تزوج بناتها مــن أقــربائه. مهمــا كلّفها ذلك من فعل. اعتذر شوقى لأولاد عمه عن عدم القــدرة فــى تحقيق رغباتهم. وانعقدت فى مخيلته معادلة صعبة (إذا قتلتها ســوف أدخل السجن. وسوف يقول الناس علىّ خريج سجون. هذا إن لم يكن إعــدام. وإذا استســلمت وصــبرت. ســوف يقول الناس عنىّ . أنى امرأة. وزوجــتى تركبنى. هذا. إن لم يكن قالوا فعلاً). الخيمة بالية بعض الشىء. قرصــه البرد. صافح أولاده. انصرف إلى رمسيس. إلى زوجته كريمة. وقبل أن تطأ قدماه أرض الشقة تطاير إلى مسامعه سباب وشتائم بذيئة صادرة من زوجــته كــريمة وواردة إلى أخيها (فكرى).. قال شوقى لزوجته: ـــ ليه يا كريمة كده؟ بتشتميه ليه؟!. قالت بصوت شبيه بالصراخ : ـــ ما هولو كان لــيّه راجل أسند عليه. ماكانش اللى حصل. حصل...قال شوقى متأثراً متألماً لما سمع : ـــ بقى أنا مش راجل؟!..قالت : ـــ أنا عايزاك تطلقنى!!طلقنى يا شوقى.. قالتها بما يشبه العويل... اشتبكت خيوط المعادلة الصعبة داخله. فلــم يعد يطيق الأوامر مّرة أخرى.ولم يكن مستعدًا لهدم حياته الثانية. هو لا يعلــم سبب تمرد كريمة على أخيها. ولا يجب أن يكون ضحية لغيره. فليذهب

أخوهــا إلــى الجحيم. أيقن أن هذه الزوبعة شىء عارض. لكنه حمّلها مأخذ الجـد. واعتبر ما سمعه منها خطأ يحتاج إلى عقاب. شمّ رائحة شياط يكمن فــى لبدة حياته. شعر ببداية تكرار المأساة. وبنى على ذلك قراره. فقال لها:
ـــ دا لما تشوفى حلمة ودنك... وتركها تُردد رغبتها فى الطلاق.

****

انصرف إلى حمدية مكفهر الوجه. رحّبت به حمدية. وحدث انقلاب خطير فى المعاملـــة. رجعــت حمديـــة إلـــى سابق العهد بها. تحول البحر إلى طحينة. أســمعته كلاماً معسولاً. افتقده فى الآونة الأخيرة عند كريمة. لم تسأله لماذا رجــع مــرة أخــرى الــيها فى هذه الليلة. رغم أنها ليلة كريمة. ظنّت أنه ســيطلقها قريباً. لسبب ما. غامض. سوف تُزاح عنه الغمة بعد فترة وجيزة. وتســتأثر بـــه وحدهـــا. أوقعته فى أتونها. وليكن درساً قاسياً للأخرى. إنها تعــرف زوجهـــا جيداً. لابد من حدوث فجوة كبيرة فى علاقته بالبيت الآخر. وباتت تُدبر الحيل لاتساع وعمق هوة الفجوة.
اســتمر تواجد شوقى مع حمدية وأولادها قرابة ثلاثة شهور مما أضاف إلى شكوكها رصيداً هائلاً. فظنت بدهاء الأنثى. أن الأمربُدُ خطير. قالت لنفسها :
ـــــ لابــد أنه طلّقها!! أو ربما وقع تحت أنيابها!! لابد أن آخذ بثأرى منه. لابــد مــن استرداد كرامتى. لقد طلقنى وتزوج منها. ظنّاً منه أنه يؤدبنى... انقلبــت إلى شيطان أحمق. طلب منها شوقى ممارسة حقوقه الشرعية معها.

رفضــت واستعصــت علــيه. كلما اقترب منها. بعدت وتحولت إلى (كُبَرى). استمر هذا الحال ثلاثة شهور.

****

رجــع حــامد مــن العــراق موفقاً. إستقل سيارة مخصوص من المطار إلى المنزل. طرق الباب. خرج له رجل لا يعرفه. اندهش. سأله عن أهله. الرجل لا يعــرف شيئاً. شدّ رحاله إلى منزل عمه (محمود). استقبلته شربات وأمها. بعــد الترحيــب وتــناول الغذاء. سأل عن أسرته. قال عمه : ــــ يا حامد يابنى. إحنا من زمان مابنروحش عندكم. والسبب أمك. وعلى العموم. برعى الــبقال كان قالى. إنهم اتنقلوا فى كذا مكان. راحوا البساتين. وبعدين شبرا. وبعــد الزلــزال راحوا السيدة زينب. والحكومة عملت خيام للناس كلها اللى وقعــت بــيوتهم. لحــد مايبنولهم مساكن شعبية. وولاد أعمامك فى شنهور زارونــى هنا. وطلبوا إيد إخواتك البنات. أمك رفضت. عايزة تخللهم جمبها ياك؟!

اطمان حامد على أخبار أعمامه محمد وعلى. ونظر إلى شربات. وكأنه يقول لهــا (لــو كنتى بتكتبى.كنت عرفت منك الأخبار كلها) ثم اتفق مع عمه على ليلة الزفاف. وبعد تحديدها. سلّم عليهم. وانصرف إلى السيدة زينب.

التقى حامد بأسرته فى الخيمة، ورافقته أمه لزيارة أخيه محمد. وبعد العناق والترحيــب وتوزيع الهدايا لأخيه وزوجته فاطمة وابنهما أسامة. قرر محمد استضــافة أخيه حامد عنده إلى أن يُزف لشربات. ثم قال لأمه : ــــ وإنت يا

أمى. إنت هاتعيشى معايا هنا. عشان الخيمة برد عليكى. عشان كليتك بتتعب مـن الـبرد... قالـت الأم : ـــــ وإخواتك البنات يا بنى ماقدرش أسيبهم لوحدهـم.. ـــــــ أخويا راضى قاعد معاهم. ماتشليش هم. وكمان أبويا... أطرقـت الأم قليلاً. أدرك حامد معنى هذه الإطراقة. قال لأمه : ـــ وأنا رايح لعمـى محمود هاعدى على إخواتى وأبلغهم إنك هاتقعدى عند محمد.... وفى الصباح. توجه حامد لمنزل عمه محمد. سلّم عليه وعلى زوجته (حماة محمد شـقيقه) وأعطـاهم الهدايا. ثم عرج على عمه (على) وزوجته وسلّم عليهما ورحّـب بهمـا وأعطاهم الهدايا. توجه بعد ذلك إلى عمه محمود لكى يأنس بمحبوبـته شربات... أقسمت أم شربات أن غذاءه غداً عندهم. وسوف تذيقه أكلته المفضلة التي طالما أشاد برغبته لها أمامها كثيراً قبل سفره. جاء الغد. وجلـس حـامد أمام ساق العجل العاري المزروع وسط أنجر الفتّة.يُنسَل منه قطعـة قطعـة.يلـوك الواحدة تلو الأخرى. مستعذباً مذاقها. وبعد قليل غلبه الـنعاس. فقـال له عمـه محمود : ـــ ادخل ريّح يا حامد. إنت مالحقتش تسـتريح مـن السـفر. تمدد حامد أسفل البطانية يستشعر الدفء. قالت أم شـربات لـزوجها : ـــــ الساعة دلوقت ١٢ بالليل. وحامد مش حيلاقي مواصـلات. صحيه عشان يلحق يروّح .. ـــــ خليّه نايم لحد الصبح. هيه الدنـيا طارت.. ـــــ اخواته يقلقوا عليه... ـــــ الصبح انشاء الله يطمنوا عليه.

(٢٠)

تســـلّل إبـــن محمد شوقي الصغير(أسامة) ست سنوات. الساعة الواحدة بعد منتصف الليل. إلى المطبخ. وكثيراً ماحاول تقليد أمه في إشعال عود الثقاب. لكـــن أمه في كل مرة كانت تنهره عن ذلك بعنف. تناول علبة الكبريت وأخذ عوداً. ولعب في مفاتيح البوتاجاز ثم اشعل عود الثقاب. احترق البيت بأكمله. وكل من كان موجوداً داخل بطنه....

****

وقف شوقي أمام الخيمة يناجي ربه : ـــ أنا في حيرة ما بعدها حيرة. ماذا أفعـــل يا ربي؟ لقد يئست من الحياة ومن عليها. أنقذني من هلاك نفسي. أنا في حصار. شبيه بالسجين وراء القضبان. اوهب لي حلاً،لما أنا فيه.أنا عبدك الذليل الضعيف. ماذا افعل؟ ماذا افعل؟
فجـــأة ســـمع برعـــي ينادي عليه. ويخبره بما حدث. انهار وادخلوه الخيمة. وعـــندما عاد إلى وعيه. حمد الله على سلامة حامد. وبارك له عمره الجديد. واصـــبحت الكـــوارع الأكلـــة المفضلة عنده. ضوى امام عينيه بصيص أمل. قـــبض علـــيه. احتضنه بجواره. أسرع إلى برعي وطلب منه تدبير شقة في

أســرع وقت.. سأله برعي : ـــ لماذا؟ قال شوقي : ـــ لما آجي هاقولك ... كــان شوقي قد حصل على عنوان عمه من برعي قبل ذلك . عندما سافر للـتعزية فــى وفــاة عمـــه. يومهـــا لمح ثريا فى ثوبها الأسود وقد إزدادت نضوجة. ومن يومها عرف العنوان و الأمل.

****

لم يصبر. طار إلى فوة. ثريا الآن أصبحت عروساً. متوسطة الجمال. لا بأس بهـــا. هذا هو الحل الوحيد. جلس وسط زوجة عمه الراحل. وبجواره جمال. وهاهى ثريا تحتل صفحة عينيه المرهقتين. تبادل أفراد الأسرة الحديث معه. عـــن أخـــباره وأسباب انقطاع الخطابات. وأخبار زوجتيه. أخبرهم أن حمدية ماتــت فـــى حريق واصطحبت معها إبنه محمد وزوجته وإبنهما أسامة. وأن كـــريمة بـــدأت تمثيل نفس الدور. وأكمل:ـــ عشان كده أنا سيبتها. وجيت عشـــان أطلب إيد ثريا. بنت عمى ولحمى و عارى ... كانت ثريا لحظتئذ قد مضـــى قطـــار الزواج بعيداً عنها وتركها وحيدة في المحطة. وبعد قليل من الـــتردد. وافق جمال. وامتلأت أركان الشقة بالزغاريد . وحضر المأذون وتم عقـــد القـــران. وفي الصباح أخذ شوقي زوجته إلى القاهرة. أما كريمة فقد ركبـــت رأسها. ظناً منها أن شوقي لن يتحمل بُعدها. بعد استقرار شوقي مع زوجـــته الجديدة(الثالثة). سافر إلى شنهور لأولاد أعمامه. الذين جاءوا معه إلـــى القاهرة وتم عقد قران بناته الأربعة، في نفس يوم زفاف حامد وشربات في حقل كبير . ضم جميع أخواته وأولاد أعمامه وأحبابه.

عــندما علمت كريمة بزواج زوجها شوقي من ابنة عمه(ثريا) سال لعابها. وانصــهر إلـــى أقصـــى درجة من الغليان. فبعثت إليه بأمها. تستسمحه في العــودة.. أخرج ورقة من جيبه. وقسّم شوقي أيام الأسبوع مناصفة بين ثريا وكريمة.أما يوم الجمعة فقد خصصه داخل بيت الله بالمسجد الحسيني ليبارك هذه القسمة.

(تمت)

الأديب في سطور

الاسم : صابر جمعة سعيد
تاريخ الميلاد : ١٩٥٧/٨/١٢م
مكان الميلاد : قسم الخليفة – القاهرة
المهنة :مدير مدرسة الشريفات الإعدادية بمحافظة شمال سيناء
التليفون : ٠٦٨٣٣٥٤٠١ - ٠٦٨٣٣٣١٨٤
المؤهل : ليسانس آداب ١٩٧٩م – جامعة الإسكندرية
نوع الكتابة : قصة قصيرة – رواية طويلة
الجوائز : حاز الأديب على كثير من شهادات التقدير والجوائز من قصور ثقافة جمهورية مصر العربية وذلك لفوزه بالصدارة في كتابة القصة القصيرة .
الأعمال المنشورة : نشرت له أكثر من مائتي قصة قصيرة في معظم الصحف المصرية والعربية مثل مجلة الكويت ومجلة العربي والأهرام المسائي وجريدة القاهرة وجريدة العروبة وأرض السلام وجريدة سيناء ومجلة المرجان ومجلة أفق بالانترنت في العدد ١٣ ، ٣٧ ونشر له الكثير من النقد في جريدة المساء .
وله تحت الطبع مجموعة قصصية بعنوان (زواج في العالم الآخر)
وهو الآن سكرتير نادي أدب العريش بقصر ثقافة العريش .

رقـــم الإيـــداع
٢٠٠٥ / ١٧٦٦٥
الترقيم الدولي
I.S.B.N